رابطة الأدب الإسلامي العالمية
مكتب البلاد العربية

(٣١)

فوّهة الجرح

(مجموعة قصصية)

سكينة قدور

المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الثانية في
مسابقة الأدبيات في رابطة الأدب الإسلامي العالمية

العبيكان
Obeikan

ح مكتبة العبيكان، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

قدور، سكينة

فوهة الجرح./ سكينة قدور. - الرياض، ١٤٣٠هـ

١٥٤ ص؛ ١٤ × ١٢سم

ردمك: ٠-٧٤٨-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص القصيرة - الجزائر أ. العنوان

ديوي ٨١٣,١٩٦٥ ١٤٣٠/ ٣٤١٠

رقم الإيداع: ١٤٣٠/ ٣٤١٠

ردمك: ٠-٧٤٨-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

من المسافر منا ومن الراحل؟ ٧

فوهة الجرح ١٣

مدينة المقابر ٢٣

رائحة البرتقال ٣١

عاصفة في القرية ٣٩

تائهة في محطات الدنى ٤٥

قلوب باردة ٥١

بحيرة الأكدار ٥٧

مناجاة تحت جنح الليل ٦٧

وماتت الفرحة..! ٧٣

اللوز المر ٨١

ريفية..! ٩١

تعلمي وضع النقط ٩٩

الأمل والخريف ١٠٦

المرآة ١١٥

انتظار تحت شمس الغروب ١٢١

التلاشي في رحم الماء ١٢٩

غصن التينة!! ١٣٧

رائحة النعناع ١٤٥

من المسافر منا ومن الراحل؟!

طرقات على الباب متخاذلة، مرتجفة، خائفة، مضطربة، متكسرة. تسابقت البنتان إلى الباب، فقد طال انتظارهما، ولم يأتِ الغائب المنتظر، والشمس مالت إلى الغروب. ما إن فتح الباب حتى ارتمى جسد منهك إلى الداخل، متثاقل كتلك الطرقات الخفيفة الغريبة، فارقته حيويته ونشاطه، وكان الوجه مغبرًا مصفرًا شاحبًا، غرب عنه نوره وإشراقته المعتادة، وفارقته بسمته العذبة الصافية.

جلس على عتبة الباب، والأختان تتبادلان النظرات بلا كلام، فالموقف هو الذي يتكلم، ويعبر عما تحمله هذه النفس الطارقة..، اتجهت العيون إلى المقبل، تسألانه في صمت وخوف، فتجيب القسمات الباهتة واللون الأصفر بلا حروف: لا أحد في الدار، كلٌّ رحل عنها وبقينا نحن كالحمامتين ننتظر أوبتك، ننظر إليك لكي تعوضنا النظر إلى كل الراحلين سواك، هم سافروا وأنت الذي بقي لنا، لكن من المسافر: هم أم نحن، أم أنت؟! من الراحل منكم: أأنت أم هم؟!

إنــك الآن في هــذه الدقائق مسافــر، وأنت الآن فــي منعرج العالم الذي سافــر إليه خيالك وعقلك وروحك، فتجلــت علامات السفر على جسدك، وتقاطرت حبيبات عرق الرحيل من وجهك. ولكن أين سافرت يا أخــي؟! لحظات من الذهــول خيمت على الثلاثــي المسافر في زمن التيــه، في بحر الفكر، وران الصمت على الدار فكأن من فيها أموات أو مسافــرون. سبح كل في خياله، البنتــان تبحثان عن سبب ذلك الوجوم وتلــك الرجفــة المفاجئــة، كل واحدة منهمــا تفكر فــي السبب وتعصر الذاكــرة والخيال.. تبحث عن أم هذه المحنة الصامتة، والأخ الصغير الذي حركتــه الصدمة وأفاقته من أحلام الطفولــة، أكدت له أنه صار رجلاً.. هو الآخر يسترجع الحادث ويحلل أجزاءه.

لمــاذا ترددنا يــا رفيق العمــر القصيــر، ورفيق الطفولــة الريفية المتشيطنــة؟! لماذا ترددنا في السفــر وقد رسمناه منذ أسبوع؟! لماذا انتابنــا التراجــع؟! ألأن أحدنا خائف مــن السفر؟! لمــاذا توقفنا عند منتصــف الطريــق؟! لماذا يــا حبيب عمــري، كنت تلح علــي بمواصلة الطريق وأرفض، وتلح فأستسلــم لأحلامك؟! ألأشهد رحيلك، أم ليجد كلٌّ منا بعد ذلك طريقًا للسفر، ولأودعك ولا تودعني أنت؟! لأنك رحلت ولم تعد تعرف للوداع سبيلاً؟!

أتذكــر يــا أخــي، كيف توقفنــا للمرة الثالثــة نتعلل ونبحــث لعجلة الدراجة عن علة تثنينا عن السفر، أتذكر عندما كانت أصواتنا تتطاير تحــت وهج الشمس فتحرقه، وتتعالى ونحن نعيد شريط الطفولة الرائع بطيشــه وبراءته وصفائه، ونتبــادل الأمنيات أن نكمــل شريط الشباب جنبًــا إلى جنب، ونقفز فجأة إلى رزانة الشيــوخ، فيتخيل كلٌّ منا الآخر

شيخًـا حكيمًا يبوح له بأحزانه وأشجانـه وأمانيه، بأحلامه، بذكرياته، بماضيه.

وفجأة قاطعتنـي في لهجة حادة تأمرني فيهـا بالصمت، بالهدوء في وقت أنساني العمر والشباب المكان الذي وصلنا إليه، والذي كم وقفنا عنده فـي خشوع لا نعرف معناه، وحيينا أهلـه وتعرفنا عليهم ودعونا لهم، تلعثم لسانـي الذي اختلطت عليه الأفكار القديمة التـي أراد أن يبوح بها لحبيب عمـره، وذلك الموقف المهيب الذي نبهته إليه، وكم كانت دهشتي عظيمة عندما سمعتك تردد تحيتنا الطفولية، تحية عُلِّمناها، ولم نعلم معناها ولا الحكمـة منها، وتنادي أهل مدينتك المسافرين النائمين مثل أهل البقيع: السلام عليكم يا أهل المدينة، أنتم السابقون ونحن اللاحقون..!!

الشمس في كبـد السماء، ونحن نحيي الرفاق المسافرين الذين كنا نحييهـم صباح مساء ما دامت مدينتهم تقبع وسط طريقنا إلى المدينة. وبعدمـا أدينا الواجب نحو أولئك الراحلين، الدائمي الإقامة، غربت عنا شمس الكلمات وبقينا نسير في صمت مثلهم. وصلنا إلى الهدف المرجو.. فجلسنا على الشاطئ، وأخرج كل منا صنارته، ورحنا نتسابق على ديدان جمعناها بعناء منذ الصباح الباكر.. ونلقي بها إلى الماء، شمس الصيف المتوهجـة تلفح وجوهنا وأيدينا ونحن فـي شغل عنها، نقذف ما بأيدينا إلى الأعماق؛ علّ سمكة تختار الرحيل معه وتنشد زيارتنا.

أيدينـا تتشابك، وأنا أحرك الماء الهادئ فتتصاعد حبيباته، وأنت لاشـيء حي فيك سوى يديـك، فقد كنت سابحًا فـي عالمك الخاص.. عندما رأيتـك تجذب القصبة بهدوء وحذر علمت أن شيئًا قد علق بها،

لعل سمكة أرادت الرحيل أو كتب لها السفر إلى عالمنا منذ الأزل.. بينما كانت يداك تتحركان برتابة وتجذبان الخيط وأعيننا تترصد القادم بلهفة، فقد طال شوقهما وحنينهما لأيام الطفولة، حين كانت الأسماك تتهافت زائرة. بينما نحن كذلك تعالى هناك صوت بشري من الشاطئ الآخر هاجم أحلامك وأوقف تيار شوقي، عندها ارتجفت يداك، وشحب لونك، وبقيت واقفًا أبحث في ذهول عن مصدر الصوت، وأدور بلا فائدة! وفجأة رحت تجري ووجدت نفسي أتبعك بلا هدف.. بلا طريق أجري وراءك، والصرخات الخائفة المرتجفة تعلو..

كم كنت غبيًّا حينها، كم كنت غبيًّا عندما تركتك تخوض في الماء،وكم كنت غبيًّا عندما بقيت أنظر إليك، ولا ألحق بك؛ لأنني لم أكن أعرف السباحة!! أتأمل الماء الدوار، الهائج المصطخب، وأنظر إلى ذلك الطفل المستغيث والتيار يجذبه، فيصعد حينًا ويغوص حينًا آخر، وأتتبع حركاته الخائفة، وهي تعارك الأمواج، وتسرع إلى المستغيث. وبقيت وحدي من هنا، وذلك الرفيق الذاهل من هناك، ذلك الرفيق الذي يرمقك بعين آملة، أليس الغرق رفيق عمره كما أنت؟ ألم يترافقا؟ ألم يخططا لهذا السفر والعودة منه ولأسفار كثيرة بعده كما خططنا ورسمنا؟ جمدت أنفاسي عندما رأيتك تقترب مني، شخص بصري، ارتعدت فرائصي، وعشت اللحظات الحاسمة، وفجأة علا صوت جديد لينضم إلى ذلك الرجاء، وتلك الاستغاثة التي أيقظتنا من طفولتنا.. أفقت من ذهولي على صوتك، على ندائك، على صعودك، ونزولك.. سرت البرودة في عروقي، تجمد الدم بأعماقي من الوريد إلى الوريد، تجمدت نظراتي، وبقيت وحدي بعدما غصت وغاص..

غـرق المغيث والمستغيث وبقيـت وحدي.. وبقينـا وحدنا.. أهكذا تأتي بي إلى المـاء، فترحل وأبقى وحيدًا؟! أهكذا تحتال علي وتقنعني، وترغمني على السفر لتذهب، فأودعك ولا تودعني؟! أهكذا نسافر معًا، فتذهب وأبقى، أم أذهب أنا وتبقى أنت؟!

أهكذا يا رفيـق طفولتي ومخزن أحلامي، تهرب بذكرياتنا وتغوص بهـا؟! أهكـذا يا حبي، نأتـي معًا لنغـري الأسماك بالسفـر إلى عالمنا فتجذبك وتقنعك بالرحيل إلى عالمها الأرحب..؟!

أهكـذا نسافـر جميعا بـلا زاد.. بلا علـم ولا خبـر.. وتسافر أنت ويسافرغيرك في كل يوم وفي كل عام بلا زاد ولا علم ولا خبر..؟! ألأجل هذا كنت تذكرني بإخواننا النائمين؟! ألهذا كنت تحرص على تحيتهم كلمـا مررنا بمدينتهم النائمة الصاحيـة؟! وما أكثر عبورنا..!! أتعلم يا رفيق عمـري، أن رحيلك وبقائي.. سفرك وإقامتـي؟! أو لنقل: إقامتك ورحيلي.. بقاؤك وسفري قد وضع حدًّا فاصلاً للطفولة.. علمني دوامك وسفري المؤقت كيف أعد الزاد.. فسلام الله عليك أيها المقيم الدائم، وإنـي بك لاحق.. وحينها فقط أعرف من المسافر منا، من الراحل منا يا أخي..!!

فوهة الجرح

كنت أراها دائما عندما كنت أمر إلى جناح عملي، أراها دائما تقبع عند مدخل جناح الأمراض غير المعروفة المعجزة لكل طبيب، القاهرة لكل دواء.

وأنا ألقي عليها تحيتي المعتادة لأنها أصبحت واحدة من معارفي، واحتلت مساحة من اهتمامي. كنت ألاحظ على محياها ابتسامة ثقيلة حزينة مدحرجة من تحت ركامات، من خلف بحر لجي أمواجه بعضها فوق بعض، ابتسامة مسلولة من تحت جبال رواس نبتت بأعماقها وتجذرت، وذهل الطب أمام جبروتها وشموخها.

وكنت أقرأ في ملامحها كلما دخلت جناحي أو غادرته آهات مكبوتة، أتحسس حالات غثيان متشعبة، مرة أراها تطوف بالرواق كمن ضيع درة في قاع بحر، وأخرى أراها تقف ذاهلة متكئة على تلك المدفأة المهترئة الصدئة! حينا ألمحها من بعيد جالسة كالظل الهادئ الباهت، وحينا طوافة، وحينا أراها ذاهلة بعيدة عن تلك البراكين الداخلية المرتطمة بأعماقها.

ولكـن الذي لا تذهـل عنه في كل تلك الحـالات، ولا تنساه أبدًا، هو ذلك الجرح الذي لا بد منه، ذلك الابن الخرافي الذي لا يحمله أمثالها إلا أيامًـا قليلة، ليفطم بعدها عن جراحاتهـم عندما تلتئم وتجف، ولا يبقى منها غير الآثار. ولأن جرحها ما زال ينزف، فإنها لم تفطم ذلك الرضيع الغريب الذي يمتص ما يلفظه جرحها من بقايا.

قارورة صغيرة، متصلة بخيط رفيع يغور بعيدًا عن الأنظار لا أدري نهايـة حبله السري، لا أدري مكان رحمه، لا أدري مصدر قوته، زجاجة ذات خليط أصفر، أحمر، أبيض.. كلما رأيتها شعرت بغثيان ودوار.

وأصبـح ذلك الوجه الغريب جزءًا من الهموم التي كان علي أن ألج عالمهـا الرحـب الفسيح، وغدا ذلك الجرح الـذي أراه ماثلاً كل صباح ومسـاء جزءًا مـن الألغاز التي عاهدت نفسي على فـك رموزها، وصار لزامـاً علي أن أغوص، لا بد أن أغور، لا بد أن أجد منقذًا.. فالأسرار لا تدركها البواب، ولا يفك طلاسمها غير الاختلاس.

مـا إن تطأ قدمـاي ذلك الـرواق الممتد، المفعـم بروائح المرض والـدواء والنعاس بعد سهـر ساكنيـه ليالي طـوالاً، حتى أجـد نفسي مشدودة إلى القاعـة رقم (٧)، تسبقني عيناي إلى هناك، تبحثان عن الطيـف، فألحقهما، أبحـث عنه، أتحسس نبضاته البـاردة، أبحث عن ابتسامته الغائرة في كنه غموضه.

وسرت إلي عدواها، هي تحمل همَّها وأنا أحمل همَّها، أحمل عذاب غموض لغزها، وسـرت إلي نبضات فضولها، هي تسأل كل يوم الأطباء عن أم دائها، وأنا أسأل عنها..

أتعجب أحيانًا من صبرها على تلك الربيبة المتشبثة برحم دائها، ينتابني حينًا الأرق لأجلها، وإذا نمت بعد جهد أحيانًا، فإنني أستيقظ على كوابيس سوداء، على حالات غثيان.. أنين.. صراخ.. دماء.. جراح.. بتر أعضاء.. بقر بطون.. أستيقظ لأعود إلى عملي بعد أن طفا على سطحه ذلك السر، فأحياه وأعطاه دفقًا جديدًا. ما عدت أستسلم لمانع يصرفني عنه، أو عنها، حاولت أن أتقرب منها أكثر، لكنها كانت تبتعد عني في خوف، ارتميت في عوالمها الفسيحة المهولة، فبعد أن كنت لا أزيد على التحية التي لا أتلقى عليها إلا نصف ابتسامة كالحة، أصبحت أسألها عن حالها، فترد غير عابئة: كما ترين!!.

وهل أرى شيئًا، أنا لا أرى غير ظاهر باهت اللون، ولمعرفة لونه الحقيقي لا بد من معرفة الباطن بكل ما يعج بداخله من براكين.. لا بد أن أجد فوهة البركان، لا بد أن أتحسس درجة غليانه، لا بد أن أعرف كيف أمنعه من الانفجار، وإلا فقدت صفة الآدمية، وحرمت عظمة الشعور بالرحمة، وما علي حينها إلا أن أرثي برودة مشاعري، وأبكي خواء روحي وقساوة قلبي، وأنا التي ترى الموت في كل يوم مرات.

تعمدت يومًا أن أدخل الجناح قبل الموعد المعروف، ما دامت آلام البشر لا تعرف موعدًا، إنها لا تطرقهم إلا عندما نغادر، وإلا عندما يكونون في وحدتهم وخلوتهم، تنزل عليهم لتقاسمهم السهاد، وتهبهم أعظم هبة يتجرعها سقيم وهي الأرق، ولا تغادرهم إلا حين تلامسهم أجهزتنا وأيادينا الباردة. لم أجد الطيف الحبيب الغريب، لم أجد ذلك التابع الأزلي اللاصق به، وكأن الرواق غير الرواق، لعلي أخطات المكان.. ولكن الحجرة رقم (٧) جذبت نظري بقوة، واسم الجناح

وشكله وطوله، وتلك الرائحــة المميزة، كل ذلك يؤكد لي عمق المأساة التي لا أعلم عنها شيئًا سوى خوف ينتابني، ورعشات رهبة قدسية تهزّ أركانــي، وفجأة شعرت بألم متجذر يمتد إلــى شرايين فؤادي، ارتفعت نبضــات قلبي كمن ضيَّــع حلمه المنشــود، أو رأى أمنية عمره تتلاشى، وفقدت حزني العميق وسري الدفين الذي تبنيته برغم بعده عني وصار جزءًا لا يتجزأ من كل المآسي التي أحملها، طرت كالملهوف إلى الغرفة رقــم (٧) حيث الكل نيام يتلذذون بالدقائق القليلة التي يفر فيها طيف الآلام وأصنــاف الحمــى، ورحت أقلــب بصري الذاهل فــي أركان تلك الحجــرة الواسعة الخافتة الأضواء، وقعت عيني فجأة على سرير فارغ، ارتعدت فرائصي، تجمدت واقفة في مكاني، ورحت أحملق في الأجساد الممــدودة؛ عَــلَّ نفسًــا حيًّا يملأ فم جرحــي أو يضمــده، لمحت عينين شاخصتين لعجوز بلغت من العمر عتيًّا، رحت أسألها وأنا متجمدة أمام السريــر المبتلع للسر، وببرودة كبرودة نظراتهــا وبرودة ألمها، أجابت دون أن تغيــر من ذهول عينيها العالقتين بالسقــف: أعادوا لها العملية الجراحية. ومن غير شعور مني وجدتني أنهال عليها بالأسئلة، لم أرحم كبرها، لم أرحــم ألمها وشيبها، لم أرحم إجابتهــا الباردة الصامتة.. تســاؤلات عديدة متضاربة لا انتظــام لها.. أين.. لمــاذا.. كيف.. جاء أهلها؟!.

أجابتنــي – من دون أن تتحرك أو تنظر إلي– عن واحد من كل تلك الأسئلــة الضجرة إجابة غير كاملة: لو كان لهــا أهل مـا... كان آخر ما سمعته منها تمتمات ممزوجة بأنين خافت خفوت شمعة حياتها، أثنتني عن أي سؤال لاحق، «هذا حال الغريب في هذه الدنيا»، لا أصدق، أعيد

على نفسي تلك الهمهمات والتمتمات، أحلل نبراتها أليس الألم غربة؟ أليست لياليه الطويلة اللامتناهية أكبر موطن لها؟ أليس الاغتراب من أجل البحث عن فوهات براكين الألم غربة؟ انتشلني من طوفان تساؤلاتي الحائرة سعال حاد وحشرجات موت من ذلك الركن، أفقت من غيبتي عن هذا العالم الشامخ بآلامه، وقفت دقائق تحية لكبريائه، دعوت الله في لطف وخشوع وخوف أن يرحم عباده، وخرجت متثاقلة الخطا إلى قاعة العمليات، ليس عندي غير أمل جريح ضعيف في لقياها، لا أعرف لها اسمًا ولاعنواناً، لا أعرف لها أهلاً، لا أعرف عنها غير تلك المعلومات البسيطة المعلقة على جانب سريرها، التي لا تزيد عن بعض المعلومات التقنية التي تخدم من يتداول عليها من الأطباء والممرضين..

منذ شهر، وأنا ألمح جسدها المهترئ المتآكل حتى النخاع، ولم أرَ أحدًا طرق باب جرحها. عند باب الحجرة ذات الأبواب الكثيرة والأجهزة الحادة والأقنعة الواقية والروائح الخاصة.. لمحت طيفًا متلفحًا في برنوس أبيض أحالت صروف الدهر لونه إلى الأصفر الممزوج بالسواد، رحت أقترب منه شيئًا فشيئًا، وكأن خيطًا غريبًا يربطني به، لعله البقية الوحيدة الباقية لصاحبتي المجهولة، كان منزويًا في ركن، والدموع تتساقط من عينيه، قرأت في عبراته معاني عديدة، دموع الحزن، دموع شقاء طالت جذوره وامتدت إلى تلك الممدودة الآن على الطاولة، الغائبة في غيابات همها: أنت والدها؟! كان جوابه انتحابًا باهتًا لطول ما انتحب، فتجعدت ملامح وجهه، ويداه وشقوق كفيه وقدميه تحمل أطلال آلاف سني الانتحاب والأنين المكبوت.

عرفتــه ليس من ملامحــه أو ملامحها، فليس لهــا ملامح معروفة لكثــرة الطبقات التي تغشاها، عرفتــه من علامات حزنه، وعرفت أكثر صلتــه بها عندما كنــت أواسيه وأحــاول التخفيف عنــه، فيبتسم مثلما كانت تبتسم نصف ابتسامة كالحة، ولا يلبث أن يلمّ شفتيه بقوة كالنادم عليها، وأعاود الكرّة، فيعيد ويزمّ شفتيه بعنف؛ حتى لا تنفرج، ستراها بعد حين يا أبتِ، ستراها بعد العملية مباشرة.

وكيــف نراهــا، وهــذه عمليــة رابعة يــا بنيتــي، دون أن يقفــوا على علتها؟.. إن الموت ينتظرها، إنه أجل قد حان، ولا راد له.. ولكن لماذا أربع عمليات؟ قد أكون أدرى بعلتها من طب الكتب والمباضع، حذرتهم من بطنها مرة أخرى، شرحت لهم الأسباب.. لو أعطوني وثيقة أقدمها للمحامي.. فالجلسة الأخيرة بعد غدٍ لعل قلبه يرقّ مرة واحدة في عمره، سبقتــه الدمــوع، فسالت على خديــه لتحبس كلماته، لــم أرد أن أحرك مــرة أخرى جمــر احتراقه، ولكن تلك الكلمات القليلــة، وتلك المفاتيح القليلــة التي فــاه بها، أخذت تطرق أبواب السر فــي رأسي، أحرقت كل احتمالاتي السابقــة.. لم يكن المرض وحده الذي يثقل كاهلها، إنه ألم ينخر جسدها، وكثيرًا ما كانت آلام الأجساد راحة من ذلك الألم الأكبر الذي يطعمه الناس بعضهم بعضًا.

وأنا أواسيــه والأفكار تتصارع في رأسي المتعب. انفرج باب غرفة العمليــات، لــم أنظر إلى ملامــح الأطباء وإن كنت أعلــم مدى تعبيرها عــن النجاح أو الفشل، مددت بصري، غصت به إلى الداخل اختلاسًا، كانــت نائمة، هادئــة نومًا لا أدري نوعه، لا أعلم أمــده، وبسؤال صامت بالقسمــات نظــرت في وجــه الطبيب المقابل، لــم ألمح فيــه شيئًا من

علامات الطبيب الفاشل بعد العملية الجراحية، أيقنت أن العملية نجحت، ونجاحها عندي ليس بمعرفة الداء وحده؛ لأن أحد مفاتيحه يكاد يكون في ذاكرتي.. تقدمت نحوهم بينما ظل الشيخ الهرم ينظر إليهم في استعطاف حزين ذليل، ورحت بألغاز الأطباء ومصطلحاتهم أشرح لهم حاجتي لرؤيتها، وحاجة ذلك الشيخ الغريب الذي وعدته بيني وبين نفسي بالورقة المرجوة، دون أن أدري عنها شيئًا. يكفي أن تكون شهادة مني، وقد رأيت جرحها، وعرفت أكثر مما عرفه طبيبها.

بعد جهد فتح لنا الباب، دخلنا ثلاثتنا، أنا والشيخ والطبيب المشرف على العملية.. دخلنا في هدوء ووجدناها ملفحة بإزار أبيض ناصع، لا يظهر منها غير وجهها، رأيت شيئًا في وجهها يتحرك، أحسست أنها تعاني، تريد أن تفتح عينها، اقتربت منها أكثر، قربت أنفاسي منها حتى أذكرها، كلما قربت أنفاسي منها فتحت عينيها أكثر، لعل دفء أنفاسي ذكرها بدفء ما عزيز عليها، فراحت تفتح عينيها قليلاً قليلاً؛ حتى لا تصطدم ببرودة الواقع، وأنا أقترب منها، أكاد أقبل وجهها الصابر الصامد الآمل، تحولت بعينيها ببطء نحو ذلك الشيخ العجوز ورعشات الشيخوخة تهز أركانه وتجرحه وترسم على ملامحه أخاديد الزمن، كانت تنظر إليه وكأنها تدعوه ليقترب منها، وتزحزحت من أمامها تاركة له المكان، ورحت أرقب، كانت تسأله بعينيها؛ لأن الشفتين كانتا مطبقتين، شاحبتين، وكان يجيبها بدموع وبعض الهمهمات التي لم أفهم منها شيئًا، غير نبراتها الحزينة وصوتها الدامي الشجي، غلبه النحيب، فتنحى عنها؛ حتى لا ترى بكاءه اليائس وزيارته الفارغة بالنسبة إليها.

أحس الطبيب بضرورة تدخلـه، انزويت بالشيخ العجوز في ركن من أركان الغرفـة الملأى بالمقصات والمباضـع والكمامات.. والقفازات.. والإبـر والقوارير.. وراح يحرك الخيـوط، يبدل ذلك السائل المغذي من إحـدى يديهـا إلى الأخرى، إلى رجليهـا إلى أنفها، صعـدت البرودة إلى قمـة رأسي، انخفضت درجة حرارتي إلى الصفر، تبدلت ملامح وجهي، رحت أتحسس وجهي، أدفئه، وأتابع المشهد الذي كثيرًا ما عشته أضعافًا مضاعفة، مضى الشيخ مهرولاً نحوها، وكأنه يبحث عن فوهة بركانها أو فوهاته المتعددة الخفية. كنت أرى عمق الفوهة فيها وأرى نظراتها تغور، وأنـا كالمشـدوه أنظر، دنا الشيـخ أكثر فأكثر، وفي أنيـن باهت سمعتها تسأله بكلمات متقطعة ممزوجة: ألم تحضر معك صابر وسمية، أدخلهما لأنظـر إليهما آخر مرة، أنا بخير لا تخف عليهما، قد يمنح النظر إليهما جرحـي عمرًا جديدًا، قـد يغلق أفواه جراحاتي ولـو إلى حين، كانت تئن وهـي تحسب أنها تناديهما، غلبته الدمـوع وامتزجت بإجابته المبحوحة الداميـة، إنه لا يستطيع إحضارهما، فقد كانـت المرافعة لصالحه، فاز بصابـر وسمية، فلديه مـن يحضنهما ولديه مـأوى يأويهما، ومال ينفقه عليهمـا.. أمـا نحن فإنـك لا تملكين غير هـذا السرير فـي المستشفى، حتى البيـت ضيقها علينا أخواك وزوجتاهما. جـرت دموعه، أخذ جناح برنوسه يجفف به دموعه وهو يعدها بصابر وسمية عندما يأتي لزيارتها في المرة الثانية، ربما غدًا.. ربما الشهر المقبل.. ربما العام المقبل، قد يجدها، وقد لا يجد شيئًا غير ملف برقم ورموز!!

كنـت وأنا أتابع المشهد، أستنجد بعينـي فتخونني، أستنجد بعقلي المرهـق؛ كي أختفي في حناياه في غيبوبة إرادية، لا أفيق منها إلا على

الفصل الأخير من هذه المأساة، أغمض عيني حينًا، فأرى الطبيب وقد اختلفت الخيوط في يديه، مضطرب الحركات، دامع العينين، كل ما حولي في هذه القاعة الباكية ينتحب، حتى جرحها.

كانت فوهة البركان أكبر، لفظت كل دواء؛ لأنها في حاجة إلى أن تخرج همومها المكبوتة، انفتحت فوهة بركانها في سكينة وهدوء، كان انفجار البركان هادئًا، صامتًا، لا شيء يميزه غير رفضه للحياة، وخلاصه مما صمد أمامه من حمم واحتواه حينًا من الدهر.

نامت صاحبتي المجهولة، نومة هادئة مريحة، نامت نومة أخيرة أبدية، وهي تحلم بيوم جميل هادئ، ترى فيها صابرها وسميتها، ولكن في عالم آخر!

لملمت أوراقي، لملمت دموعي، سددت فوهة الجراح، ورحت أبحث عن طفليها اليتيمين؛ وفاء لصحبتها الغريبة.

مدينة المقابر

كانـت أمه تخيفه دائمًا، كما أخافـت كل أطفالها بالغول والعنقاء، وبالجن والمقابر!. كانت الأسرة تحيا في سعادة المعدمين المدقعين، والسعادة فـي عصرنا طبقات ودرجات، تملأ قلـوب أفرادها المحبة، ويفعمهـا حنان يغطي ما تعانيه من ضنك الحيـاة، وينسي ما تتجرعه من ظلم العباد بعضهم بعضًا.

هي أسرة سعيدة بذلك الجحر الذي هي محشوة فيه، والذي دكّ بـدوره تحت سلالم العمارة المثقلة بأدوارها وطوابقها الكثيرة، كأنه يحمـل على كاهله الهزيل كل الساكنيـن، وكل المترفين بما عندهم، وهـم كثرة فـي العمارة من ذلـك الحي الـذي اصطلح الـرأي العام علـى تسميته: «حي المترفين»، حـي المترفين المثقلين بكل شيء في الحياة، حتى القسـاوة والظلم، وحتى الشر!. ولكن هو حي المدقعين الذين يخدمون المترفين بلا مقابل، أو مقابل صفع وشتم وركل وبعض الدراهم!.

هـم سعداء بأبيهـم الشيخ الكبير، وقـد اشتعل الرأس منه شيبًا، وبقبوعـه الدائم في ذلك الجحـر الصغير الذي جاد بـه عليه صاحب العمـارة، وملأ عليـه ضيقه بعلب من السكر، وأخـرى من الشاي وعلب سجائـر، وشـيء مـن الحلـوى ولعـب الأطفـال، وأشيـاء أخـرى قد لا تشترى!!.

وهـم سعداء برضاه، بذلك الـرزق الضئيل وما يدرّه عليه الجحر، وهـو الشاحـب الهزيل كشاة أم معبـد الهزيلة، ولكن لا يـد رحيمة كيد المصطفـى صلى الله عليه وسلم تـدرّه وتسقي القائم عليه، أما الأيدي التي تمتص جهده فقائمة وأمثالها كثير!.

وهـم سعـداء بطفولتهم التي راحـت تدفع عمرهـا الغض الطري ثمنًـا لأمراض الحياة وظلم العبـاد، طفولة غضة ندية تقضي اليوم في الطواف على بيـوت الأغنياء؛ لتخلصها من قماماتهـا المتراكمة بقدر تراكم ما في الجيوب المتعفنة الكريهة الرائحة كرائحة بعض مصادرها الظاهـرة والخفية، وسعـداء بتلك الدريهمات القليلـة التي يعودون بها في المسـاء، وإن كانت لا تكفي، فإنهم يكملـون بعض ما يحتاجون إليه مـن تلك الأكياس السوداء التي تلفظها بيوت الأغنياء، ومن ذلك القيء العفن الذي تجود به بعض سيدات البيوت، والجيدات منهن قلائل!!.

وهـم سعـداء بذلك العمر الشقـي الذي يقضونه فـي الشوارع فوق أكـوام القمامـات، وأتانهـم المنهـك الهزيـل مثلهـم يلهث مـن حمله الثقيل وجوعه وهزاله، وقـد زاده العباد ظلمًا، وقيدوا قدميه العاريتين الشاحبتيـن بمرتاج من حديد، ومفاتيح غلاظ وسلاسل؛ حتى لا يهرب

من جوعه وعبئه، ولا يفرّ من ذلك السوط الغليظ الذي تعود عليه ظهره العاري من الوبر، الحامل لمئات من وصمات السياط.

وهم سعداء بأمهم، وقد أحنى الدهر ظهرها، وما حان وقت انحنائه..

سعداء بصمتها الحزين وهروبها من كل سؤال عن نعيم الآخرين..

سعداء بهزالها، وبالطفل الرضيع الذي ليس كأطفال الآخرين، فقد غطاه الشحوب، وأذبل نظرة عينيه شحّ السنوات العجاف على من حالهم كحاله، السمان على ذوي البطون المنتفخة.

سعداء بأمهم في صبرها على عمرها الضائع في صعود وهبوط بين طوابق العمارة، وجهدها الضائع بين سيدات البيوت المنتفخات من كل شيء.

سعداء بها؛ لأنها تعود إليهم أحيانًا برغيف أو حساء أو بقايا زيت وصابون وملح، وأحيانًا ببقايا أثواب أطفالهم القديمة؛ لتستر بها عري أبنائها، وتعود أحيانًا بقليل من الدعاء البارد مثل الصقيع المر كمرارة عمرها، الخارج من جوف الحناجر الباردة المتحجرة لا من نبع القلوب؛ لأن تلك القلوب لا تمنح دفئها إلا لطائفة من البشر تعرف بما يفوح منها من أريج وعطور وعفن.

سعداء بنومهم في ذلك الجحر الأضيق من جحر ضب خرب، الأظلم من بيت غول سمعوا عنه حكايات وقصصًا.

وسعـداء؛ لأنهم لا ينامون حتى يخرجوا بعضـ الأثاث العتيق الذي أكلت عليه الدهور.

وسعـداء بذلـك الفراش المهلهل، وذلـك المهراس الذي لا تمحي آثار النائم فوقه لعام، فكيف وهم يتقلبون فوقه كل يوم.

بـل إنهم كانوا سعداء بـكل ما عندهم، راضيـن، قانعين، وأحيانًا غير خانعين؛ لأنهم يئسوا من طعم الخنوع المر والصمت الذليل!!.

ذات ليلـة من ليالي ذلك الحـي البهي، كان أكبر الأبنـاء واقفًا عند بـاب العمارة ينتظر رشـات من البرد وقصفات من الهـواء البارد تلطم جسمـه الدافئ العـاري، تصفعه فتسـري موجات البـرودة القاسية في كيانه الغض، فيرتعش وينكمش على بعضه، ويلتف في شظاياه المرتجفة، بينما هو كذلك جاءه صوت جديد، وقفت في الباب سيارة ذات طول غير معهـود، وصـوت غير مألوف، ولـون اختلطت فيه كل الألـوان تحت ضوء الليل غير العادي. إنه صاحب العمارة، صفع الأبواب ليسمع من لم يسمع صوتهـا الجديد الطراز، ومضـى في كبرياء! وفي كبريـاء وتجبر أعطى الطفل المفاتيح؛ لينظـف وإخوته ذلك الكائن الغريب. ولكنه هذه المرة غير العادية أصم أذني الطفل بتحذيراته ووصاياه وتخويفه من أذى ذلك المخلوق الجميل؛ لأنه غير عادي، ولأنها سيارة ليست كباقي السيارات.

راح الطفـل يلهـث، وتسرب إلـى الجحر؛ ليعود ومعـه أخواه وكلهم سـرور وبشر؛ لأنهم قد يكونون أول من يداعب مثلها، نظفوها، طهروها ممـا قد تكون خرجت بـه من محلها الأول، فصـارت ذات صفاء وطهر مثل قلوبهم الطاهرة.. وعاد السيد صاحب أثواب الحرير؛ ليأخذ منهم

المفاتيح، ويجلس على الكرسي الوثير، ويدير محرك السيارة الكبيرة، فيجري الطفل الذي صيرته السنوات رجلاً، ويفتح باب السيارة؛ ليطالب بالأجر، إن لم يكن أجر الغسيل، فليكن ثمن البرد الذي صفع أجسامهم الندية، وكان حظه ركلاً وصوتًا غاضبًا كالصاعقة «حذار.. حذار» فقد لطخت ما غسلته يداك.. وأي أجر تريد..؟!!

نام الجميع، ولم تنم عينا الطفل الذي كان أول من رفع صوت الرفض ضد الخنوع الذي أدمى قلب الطفل، ونسي شيب أبيه، وانحناء ظهر أمه وصبرهما الدؤوب، ونسي الشوارع الضاجة بمن لا مأوى لهم غير الزوايا القفر، وغير الخرابات إن كانت قد بقيت خرابات لم يعمرها مساكين بعد!!.

لم تنم عيناه من العقاب الذي صبّ على رأسه من أمه وأبيه، ولم ينم لأنه أحس أن عقابا آخر قد يتعدى على مساحة جسمه الصغيرة ليغزو أبعاد أسرته. ولكن النعاس، وإن تحداه الأطفال، وحاولوا الانتصار عليه يغلبهم ولو في الصباح. وما إن غلب النعاس جفنيه حتى اختطف الكل لضربات قوية على الباب.

إنها إيذان بالرحيل، وإيذان بالهجرة، بل إيذان بالترحيل والتهجير، إذ إنهم كفروا بنعمة البشر، ولم يكن كفرًا، ولكن الرفض عندهم كفرا وقول: (الآه) عندهم كفرا ولفظ الحق عندهم ارتداد وكفرا!!

جاءهم ببواب جديد لم تشيبه الحياة، وصغار يقفزون في مرح، وينظرون في غرور وكبرياء إلى أولئك المطرودين إلى المجهول، ولهم أن يتباهوا وأن يمرحوا.

نهض الأب الشيخ ورعدة الشيب تهز أركانه، وراح يرجو ويتوسل ويذرف دموعه. ولكن إصرار البواب الجديد وحمله متاعهم الحزين الضحل إلى الخارج جعله يستفيق، ويسأل العمر الطويل الذي قضاه في خدمة الأسياد، وينهل منه درسًا توجه به إلى الطارق الجديد...: «سيأتي اليوم الذي تطرد فيه، فلا يغرنك يا ولدي، هذا التبسم الباكي، وهذه الضحكة الصفراء الشاحبة التي لا تعطي شيئًا، وتأخذ كل شيء...» أخذ بيد طفله المتمرد كما قيل له، ومسح بيده على شعره المغبر المجهد، وراح يحزم ويحزمون ما عندهم. تعاون الجميع على حمل ما يقوى أن تحمله الأيدي، ولا يسقط منها مهترئًا باكيًا.

بعدما ملأ الخوف النفوس أيقن الجميع أن أرض الله واسعة. فباتوا الليل في الخلاء، كانت من أسعد لياليهم، فقد علمتهم أن الحياة أوسع من ذلك الجحر الخرب، وأن الدنيا أرحب. ومرت على الجمع المكلوم أيام عذاب سود في الفضاء الرحب، هي سود بذلك الفراغ الذي يعودون به كل مساء صفر الأيادي، فارغين من كل خبر عن مقر جديد، وعذاب بتحررها الزائد عن الحد بامتدادها الخرافي اللامحدود، وببعدها عن صوت زاجر أو آمر، أو صفعة،أو دعاء باهت، وعذاب بتغلب الأطفال على كابوس الغول والجن والعنقاء الذي طالما أسكن الرعب في نفوسهم.

عندما نام الصغار أطرق الشيخ يفكر عن سبيل ينقل به الخبر لزوجه، فقد قضى يومه يطوف باحثًا عن مكان جديد لا يطرده أحد ولا يصده أحد! فتش في كل الخرابات، وكل البنايات القائمة، فوجد فيها العامر بأمثاله، ووجد الفارغ الحزين، ووجد المهلهل المتداعي الجذر.

عاشـ صراعًا حادًّا بين الصمـت والبوح، وخشي «أن يصمت دهرًا لينطـق كفـرًا»! أخذ يعصـر القلب، ويدفـع بعنف تلك الكلمـة الجائعة اللفظ..المشبعة المعنى، يدحرجها، اهتزت حباله الصوتية، وانفجرت شفتـاه، وازداد بريق عينيـه، ولم تنزل كتلة الجليـد الضخمة، فسبقته إليهـا: لماذا لا نذهب إلى مدينـة.. وغلبها الصمت، فأكمل ببرودة دم: تقصدين مدينـة المقابر!! على نغمته المفزعة تلـك استيقظ الصغار فـي ذهول، وكلهم يسأل في صمت عن المدينة، وكلهم يعلن رفضه لها، ويفضح خوفه الطفولي منها، وقد غرسته فيهم أمهم في الصغر.

لكـن الأم انفجرت بالبـكاء - وهي التي ذاقت من الأحياء- وراحت تقنـع الصغـار: ألا تـرون، ألم تنظروا الـذي لاقيناه هنـاك.. برد وذل وصفـع وركل وشح وبخل ومنع اشتكاء، كم أفـواه، وظلم صباح مساء.. قد حيينـا بينهم ورضينا بجحرهـم، وسعناه بصبرنـا، فضيقوه علينا بظلمهم والدنيا أرحب من أن يضيقها بشر!!!

- عاشرنـا الأحياء وعرفناهم، فلنجرب هـؤلاء، ولنرَ هل يطردون البشر؟

أجابت الطفلة:

- وكيف يطردوننا، وهم أموات؟!

- ما داموا لا يطردون البشر، فإنهم أحبابنا!!

الأطفـال يسألـون، وهي تجيـب ببسمـة مضيئة بعد يأس وحزن، والأطفـال يعلنون عـن خوفهم، وهي تقتلـه بمعول صبرهـا ويقينها أن

المدينة.. أرحب وأن أهلها أرحم. وإن كانوا نيامًا، فهم بأيدي الحيارى والحزانى والمهجرين من خارطة الوطن التي تمتد صباح مساء بالدعاء لهم قعودًا. وهم أحياء بإيوائهم أولئك الذي وسعت قلوبهم هموم الدنيا وذاقت مرها، وإن سماهم الناس أمواتًا، وسموا مدينتهم الشامخة بلطفها على الأموات الأحياء من البشر: مدينة المقابر!!

هي الحياة بين جحر وقصر وقبر! وإنما يقاس الرحب الفسيح منها برحابة الصدور، لا بالقصور!!.

رائحة البرتقال

رذاذ خفيف كانت حبيباته تنزل على خمارها الأبيض المسدل على كتفها وصدرها، وتلفح أحيانًا وجهها المشرق. لم تعره أي اهتمام، فقد كان الفكر مشغولاً بفضاءاته الرحبة، وكان يحث قدميها على السير الحثيث والإسراع، فلا تشعر بنفسها إلا وهي ترى الخطوات الواسعة المتسارعة الراكضة. تتوقف حينًا تستنشق أنفاسًا جديدة، وتدخل إلى رئتيها هواء باردًا رطبًا، تلتفت يمينًا وشمالاً.. كان الطريق خاويًا إلا منها.. ثم تستأنف سيرها وتعود إلى سرعتها ولهفتها..

أحلام كثيرة راودت ذهن المربية المتمرنة.. تخيلت المشهد بروعته وجلاله وجماله.. تزاحمت المشاهد في مخيلتها، تراكمت، وهي تشق الطريق في ذلك اليوم البارد المنبئ بحلول الشتاء، بقدوم حلة الثلج البهية البيضاء. تراءت لها تلك الوجوه السمحة، وهي تخلع ثوب الحداد عن قسماتها وتودع مسحة الحزن المعهودة.. تخيلت تلك الحنجرة الصداحة وهي تجأر بالقرآن.. تجلجل أرجاء القاعة التي لا تفتح إلا مرتين في العام، وما أشد شوق الأطفال إلى تلك الذكريات.. الثالث من (ديسمبر) والرابع عشر من (مارس) من كل عام!!.

أخـذت تنصـت بقلبها لتلك التلاوة المميزة لذلـك الطفل الرجل، المدغدغـة لقلـوب غلف تكاد لا تفتـح للذكر!! ترى مـاذا سيختار هذه المـرة..؟! راحت الآيات تتصاعد في أعماقهـا.. ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾.. ﴿ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ (فرامل) مذعورة كبحت جماحها بعناء عند قدمي المربية.. توقفت أمامهـا سيارة فاخرة.. أطل منها وجه عريض تتدلى من جميع جهاته أكوام الشحم واللحم.. تكاد العينان تختفيان وراء تلك الطبقات..

وقفـت مذعـورة دون حراك.. هدّأ الرجل مـن روعها باعتذاره عن سرعته المجنونة، سألها إن كان الطريق الذي يسلكه يؤدي إلى «مدرسة صغـار المكفوفين». ردت عليه بالإيجاب إيمـاء برأسها وإشارة بأصابع يدها إلى ذلك المبنى القريب..

قطع الرجل تيـار أفكارها لتجد نفسها أمام لافتة عريضة توسطت الشارع، تشير إلى تلك المناسبـة: «هلموا لمشاركة المكفوفين عيدهم العالمي..» هرولت مسرعة، اجتازت الباب الخارجي، تقدمت نحو البهو المتطـاول. كانت تسبقها صيحات الأطفـال وضجيجهم الموحي بشيء مـن الفرحة، الحامل في حنايـاه أنغام البشر والحبـور، وكلما تقدمت ازدادت الصيحات شدة وحماسة.

وقفـت في قلـب البهو تنظر إلـى الجناحين، الجنـاح (أ) والجناح (ب)، تنازعتهـا مشاعر عدة، فلطالما سعـت إلى العدل بينهم جميعًا، ولطالمـا قسمت حنانها الفياضـ بعدل على الجميع، لـم تغضب أحدًا

منـذ دخولها، متمرنة إلى هذه المدرسـة. ولذلك التف حولها الصغار، واتخـذوا منها الملاذ الذي يحتمون به، والصدر الرحب الذي يحتضن همومهم واهتماماتهم، ويغدق عليهم المحبة والرحمة بلا حساب.

تـرددت بيـن الجناحين، وقـررت أن تبدأ بجناح البنـات، فهن في حاجـة إليهـا أكثر من أخواتهـن للخروج إلى الحفل بمـا يليق بالذكرى والحضـور.. اقتربـت همسـات حذائها الخفيفـة، فإذا بهـن يخرجن هاتفات: «معلمة شفاء»!! والمربية بالداخل تصرخ وتتوعد وتهدد إن لم تعدن لإكمال باقي الترتيبات...

التففـن حولها، واحدة تمسك بيمناها والأخـرى بيسراها، وتلك تشد طرف جلبابها، وأخرى مدت يدها تتحسس شيئًا يقربها من طيبة القلب تلك، فلـم تبقِ لها زميلاتها غير المحفظة، فتشبثـت بها.. دخلت شفاء المرقد، كانت الأَسرة مقلوبة رأسًا على عقب، الأدراج مقلوبة مبعثرة، رائحة القدم تلف المـكان، والمربية تتأجـج غيظاً، كلما رأت البنـات يتحلقن حول هذه (المتربصـة)[1] الجديدة جنّ جنونها، واختلقـت ألف عذر لتعذيبهن على ذلك الاختيار، على تلك الطاعة العمياء، على ذلك الحب المتسامي. طلبت منهـن شفاء أن يرتبـن أسِرَّتهن أولاً لتساعدهن بعد ذلـك على الاستعداد للحفـل.. بـدأت بأصغرهن «سنـاء».. وراحـت تضفي مسحة مـن النظام والاحتشام الذي لا يخلو من لمسات جمال على هندام كل واحدة منهن إلى أن أتت إلى أكبرهن «مريم» التي كانت قد ارتدت جلبابها وخمارها.

---

(١) المتربصـ أو المتربصـة هـو الشخص الذي ينتظـر الوظيفة الرسميـة في عرف بلاد المغرب العربي.

خرجت البنات، وهن في كامل استعدادهن للحفل، خرجن هاتفات بأناشيد وأهازيج تعبيرًا عن مدى الفرحة الكبرى بالأعماق، لا واحدة تزاحم الأخرى، أو تنوي الوصول قبلها.. كن أبصر من بصير.. سناء، فوفاء.. فزينب.. فمريم..

وراحت شفاء تحث الخطا نحو الجناح المقبل، وعيناها ترقبان ذلك المشهد الطفولي الرائع.. تتابع الخطوات، تتحسس الأنفاس، تتسمع دقات القلوب. وقبل ولوجها الباب ارتسم مشهد ثانٍ لا يكاد يختلف عن سابقه، الفتيان يتقدمون نحو البهو ويهتفون باسم شفاء والمربي المتربص خلفهم.

تقدم الجميع نحو قاعة الاحتفالات، أخذ الأطفال أماكنهم المعهودة دون ضجيج. لا تكاد تسمع إلا الهمسات والأنفاس الثملة. اكتمل المشهد!!.

بعد جلوس الجميع صعد مدير المدرسة إلى المنصة، رحب بكل الذين حضروا لمشاركة هؤلاء الصغار فرحتهم، بالوالي.. بالمدير.. بالوزير.. بالتاجر الكبير.. وكل أعيان المدينة الذين لم يفوتوا الفرصة.. بالأصحاب.. بالأحباب.. رحب بالجميع وشكر أولئك المتطوعين ببعض الدريهمات وبعجول وخراف... و... و... إحياء للعيد.

وجاء دور المقرئ الصغير الكبير ليعود خيال شفاء إلى البحث في قاموس ما يحفظه من الذكر العزيز، وتهتز نفوس الحضور استعدادًا لذلك الصوت المؤثر الذي طالما أفاقها من غفلتها وهزّ كيانها ورسم ما ران على القلوب من صدأ. الكل متأهب لتلقي تلك النفحات الربانية الخارجة من أعماق الفتى المفعم الصدر ذكرًا.

وقف.. أمام المكبر، اعتدل في وقفته، وراح صوته الندي الأجش يخترق الأسماع والبصائر، يغوص إلى أعمق أغوار النفوس.. يدغدغها، يحركها من سباتها.. الكل ذاهل أمام ذلك المشهد العبقري.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾ [الحج: ١-٣]. ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج: ٤٦].

تنفست شفاء بعد لحظات من الخشوع والذوبان في تلك المعاني السامية المتسامية.. بمن وهبها السمع والقلب إلى عليين، وسرت بذلك الاختيار الموفق وتلك الخاتمة التي وخز بها الحضور ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج: ٤٦].

وأعقبت ذلك أنشطة عديدة تفاعل معها الصغار ومزجوها بأرواحهم، بأنفاسهم، فكانت آيات في الإبداع الطفولي النقي البريء، والتنظيم المحكم، والانسجام والتناغم العذب بين كل العناصر المشاركة.. أناشيد ومسرحيات.. حكم وأمثال.. وختم الحفل بمسابقة أعدها المربيان المتمرنان وتطوعا بجوائزها البسيطة للفائزين.

وجاء موعد الإكرام في يوم المعوقين العالمي، إكرام هذه الشريحة المهمشة من قاموس المجتمع، الشريحة التي لا تذكر إلا مرة في العام. دعا المدير الجمع الغفير إلى المطعم. وقادت المربية الأطفال نحو الأجنحة!!

الـكل يحث الخطـا نحو المطعم، وقـد أخذت رائحة مـا لذ وطاب مـن الطعـام تغزو البطـون النهمـة، وسط ذلـك الزحام كانـت شفاء تقـف مشدوهة أمام ذلـك المشهد الثاني والوجـه الثاني لهذه الذكرى بعد مشهد الطفولة. وفي تثاقـل لحقت بالموكب.. أخذت مجلسًا قريبًا من البـاب حتى ترقب الصغـار وهم يتأهبون للدخـول لمشاركة هؤلاء الكبار فرحتهم ويومهـم. وأخذت الأطباق تنزل أمام الضيوف، اللحوم بأصنافهـا وأنواعها من لحم العجل والخروف والأرانب والدجاج.. بين مشوي ومقلي ومحمر ومسلوق..، وحلو ومالح... و... و... تطوع بها بعض الحضـور من أجل إدخـال الفرحة علـى قلوب صغـار المكفوفين بهذه المدرسة.. انشغل الكل بما حوله من زاد.. أما شفاء فهرولت نحو نائب المديـر تسألـه عن موقع الأطفـال من هذا التكريم، فهـم الذين يجب أن يتصـدروا المكان.. أجاب بابتسامة صفراء زائفة أن المربية أخذت نصيبهم من الطعام إلى الجناح؛ لأن المكان هنا لا يسع الجميع.

لم تقتنع شفاء بالجواب لكنها كظمت غيظها، حتى لا تلفت الأنظار إليهـا، جلست إلى الطاولة وراحت تدفع اللقيمـات دفعًا، وكأنها تتجرع غصصًا، مـا دام الأطفال لم ينعموا بهذا الخيـر الوفير. التفتت يمينًا وشمـالًا، كل مشغـول بما بين يديـه. كانت في شيء مـن الخوف تأخذ شطائر الخبـز وتحشوها بأصنـاف اللحوم والأجبـان والأطباق الشهية الأخرى وتدسها في محفظتها الصغيرة.. ترفع عينيها خلسة نحو سائر الأطبـاق لتجدها قد أفرغت من محتواهـا أو كادت.. ليس في المشهد غيـر الأيدي المتحركـة، الصاعدة النازلـة.. وترفع الأطبـاق الخاوية ليأتـي دور الفاكهة، فتفعـم الأطباق بما لذ منها وطـاب، وتعود الأيدي

إلـى حركتهـا السابقـة فتتظاهـر شفاء بـأكل بعض مـوزة لتدس باقي نصيبهـا من ذلك الحفل وتخرج مهرولة نحو الأجنحة.. لكنها وجدتهم فـي الساحة جميعًا يتحدثون عـن الحفل في حماسة وشوق، وعن الأداء الرائع الذي قاموا به.. أحسوا بوجودها فأسرعوا نحوها، التفوا حولها.. فهم لا يعرفون الوجه الآخر للحفل الذي تجرعته المربية وحدها، كانت أنوفهـم الصغيرة تتحسس تلك الروائح المنبعثة من محفظتها وتحاول تفكيـك رموزها وفرز خليطها.. لكنها لم تكن تعـرف شيئًا منها.. عدا رائحة واحدة.. هتفوا بصوت واحد: «رائحة البرتقال».. أكلتم البرتقال معلمة شفاء؟!!

دمعت عيناها.. كتمت أنفاسها؛ حتى لا يشعروا بما تعانيه لأجلهم.. فتحـت محفظتها وراحت تقسم بينهم ذلك الزاد القليل الذي أحضرته لهم وفـاء ليومهم السنوي.. كـم كانت قسماتهم مشرقـة بتلك البقايا والقطع الصغيرة من الخبز واللحم وجزيئات الفاكهة.. تعالت أصواتهم وتخميناتهم في تحديد تلـك الأصناف.. فلم تصب أنوفهم غير رائحة البرتقـال.. تركتهم شفـاء يتنعمون بذلـك النزر اليسير مـن إكرامية الذكر التي ما كانت لولاهم.. ووعدتهم بالمجيء غدًا..

خرجـت شفاء ورائحة البرتقال تزكـم أنفها وتمازج أنفاسها، وهي تعد نفسها بإحضار ما يكفي تلك الأفواه الظمأى من البرتقال.

عاصفة في القرية

الحلم الباهت اللون.. المكفهر الجبين يتلوى، يتمزق، يضرب الحواجز المنيعة بأنامله المتعبة، الغارقة في أوحال الهموم الحالكات.. ينادي الإله ويرجو الخلاص.. نزل الجليد كالقدر وحلّ الظلام كصحراء لا أول لها ولا آخر.. لملم أشلاءه؛ لئلا يغزوها ذاك الجليد ويخطف دفئها ولطفها، ويطفئ الظلام شمعتها الضئيلة. البرد ينزل فوقه كصاعقة عاد، وريح الشتاء تضرب أشلاءه الحزينة كأنها ريح ثمود الصرصر العاتية.. تضرب رأسه العاري الخاوي من الأحلام، تبدد فكره، تهاجم مناجاته الصاعدة في الفضاء إلى رب العباد.

الحلم الحزين يئن، يتلوى، والطفلة المرأة تتأوه، ترجع صداه بالأعماق فتكتم الصدى. من ينظر إليها يدرك حزنها الصامت المكبوت، أما أناتها ودموعها فبالأعماق تدفن، بأدغال النفس المنتظرة رحمة الإله، رحمة الرحمن الرحيم.. عندما تدفن الآه بالحناجر، عندما تخنق الدمعة بالمآقي.. عندما تسجن الشكوى بالفؤاد.. عندما ترغم الطفلة هذه الآيات أن تنام دون حبوب منوم، عندها تصعد أنفاسها

الهادئــة وهي راكعة ساجدة، صامتة هادئــة، مناجية من لا تأخذه سنة ولا نوم، وتعلو الوجه بعد يأس.. بعد حزن.. مسحة من ضياء.

الآهة المبحوحة تنزف دماء تتدحرج.. تتمزق، يرهقها الظلام، تدفعها الدمــاء للتفجــر، فتكبح جماحهــا الحناجر، حنجرة عربيــة دامية، تضمِّد جراحها العميقة وتخنق التأوه، وتخنق المآقي دمع عين هدَّها السُّقم.

نامت العيون وباتت طفلة امرأة لا تنام، الليل عندها شراعه التأمل والسهر، والدمعة المسجونة بأنهار تنفجر، تتحرر تحت أجنحة الظلام، تنزل كالدماء، تحمل جراحها وتجرح المآقي والخدود، ويصعد الرجاء فــي ظلام ليلها الرهيب لربها الرقيــب.. رباه إن رأوني بالنهار صابرة، وإن يخالنــي العباد من هموم هذه الدنيا خواء فإن قلبي قد تعب، يعيش بالنهــار صمته وصبره الــدؤوب ويجأر لربه بذنبه ويرجــو منه رحمته، يسألــه الإغاثة.. تصلي للرحمن، وترتــل القرآن، تصد حزنها الغريب، تفتح الأبــواب في هدوء وقومها نيام.. تخرج للفضاء، تسير في فجاجه الرحيب، تدوس صمته الرهيب، تحرك أقدامه عيدان تبن أو قصب.

الليــل ينشر شذى عطره، يطلقه مكفرًا عن ظلامه المهيب، مغشياً لباسه الحزين بالسرور والبِشر. غاصت القدمان الصغيرتان الحافيتان في أكوام القصب والتبن، راحت الطفلة تقفز بين ذاك الحطام، تسحب رجليهــا بخوف وحذر، وتتخير مواضعها مستأنسة بسكن الليل وهدوئه، محاربة الخوف من عذاب جديد بامتداده السرمدي وسكينته المطبقة، فالله محيط بكل شيء لا يعزب عنه مثقال ذرة.

لــم أخاف وليس عندي في الوجود غير ربي؟! لا يدوم الأهل.. لا أم ولا أب ولا.. إلا مــن أتــى الله بقلب سليم.. ولكن لا بد من بر الوالدين..

وفجـأة اعترتهـا قشعريرة شديـدة عندما تذكرت الوالديـن.. وراحت تتساءل عن ذلك الكائن الذي لا معنى له، ولا وجود في نظر أهل القرية كلهـا عن أمها. أيـن هي الآن يا ترى؟ هل أجدها فـي جحرها المعتاد، أم أن أيـدي السوء تسربت إليها تحـت ستر الليل؛ لتعبث بعفتها مثل ما اعتادت أن تفعل؟!.

راحـت تبـوح للإله بالعذاب، تسألـه الشفاء والفـرج، وتكشف بين يديه عـن تلك الألغاز التي عجز عقلها الصغير عـن إيجاد تفسير لها، بعدمـا قتلت آمالـه، وأطفـأت شمعة ذكائـه الوقاد. وهل يريـد أولئك الشـداد الغلاظ طفلاً ذكيًّا.. إنهم لا يريـدون طفلاً تكبره أحلامه.. لا يريدون طفلاً يحلم بالتفوق والنبوغ، يرنو إلى غد أفضل لا تغشى سماءه سحـب الجهل والكبرياء.. لا يجوز أن يحلم الطفل عندهم بغير الحلوى واللعـب، وإن سمح قانونهـم البشري لأحلامه بالثـورة بعض الشيء أو التمـرد، فـلا يجوز أن يحلم بغير حـال أمه وأبيـه.. إن كان الأب راعي أبقـار.. وإن كان حفار قبور فلن يسمح لعقلك الصغير وخيالك المتخم بقصص البطولات والنبوغات.. والعبقريات الفذة، لن يسمح لك بولوج بـاب غير التي ولج أبواك، «حجر حرام ألا تلك الدهاريس»، وأنت أيتها الطفلـة المرأة.. بماذا تفكرين.. بمـاذا تحلمين..؟! تحلمين أن تكوني أم المؤمنيـن خديجة.. عائشة.. الزهـراء..؟! ماذا دهاك..؟ لا ترفعي صوتـك؟ يكفيك الهمس، يكفيك لمح للظـلام بالبصر، أو إشارة بنان، وإلا حملت هبات النسيم حكاياك، شكاواك ونجواك وأسرارك؛ لتسجن خلـف قضبان العـادات والتقاليد.. أتحبين أن يكـون حالك كحال تلك اللاشـيء، النائمة الصاحية، الحاضرة الغائبـة، الذاهلة الشاردة عن كل قوانين القرية الجائرة.. ومن تكون تلك القابعة في فناء داركم فوق

أكـوام التبن.. تقدمي نحوها قليلاً.. راحت الخطوات تتسارع نحو ذلك الكائـن المنسي، لم تسمع أنفاسها القوية كالمعتاد أو شخيرها.. مابها تدس الليلة أنفاسها تحـت أكوام التبن؟ ألكـي لا يسمعها مغيبوها عن الحياة؟.

عـودي أيتهـا الطفلة، عودي فقـد يطلبك أحدهـم، أو لست جارية الجميع..؟ وإن لـم يجدوك انهالت عليك عصيهم، وأنت القلب الوحيد الذي يقـدم لها لقمة أو يضيء شمعة أو يمسـح دمعة.. راحت القدمان الصغيرتان تقفزان بخفة وتتسلـلان بين الأعشاب.. والجسم الخفيف النحيل يطير كالفراشـة اللاهثة خلف شمعتها «إني قادمة إليك أماه.. سآتيـك يـا مـن لا أعرف مـن أنت، يا من حجـر علي قانـون البشر ألا أناجيـك أو أناديك.. وداعًا أيهـا الليل الحزين كحالـي وحالها، وداعًا أيهـا السر الدفين لعقلـي وعقلها.. لا بد أن أشعل شمعـة لمن أسموها مجنونـة الريف.. وهي الآن تبحث كعادتها عن نفسها وعقلها في خضم ذلك الريف.

تسللـت إلى الفناء، حيث تقبع الشاة والخراف، وحيث تنام في إحدى زواياه تلك المرأة العدم، ذلك الكائن الذي لا تعرف كيف تسميه، فكل اسم جـرح عميق في الفؤاد.. كيف أسميك، كيف أناديك؟.. مجنونة الريف أم مجنونة الحـي؟.. أفي إشراقة عينيك بريق الجنون؟.. أفي أناتك الحرّى سمات الجنون؟.. أم في عريك وجوعك تتجلى علامات الجنون؟.

أشعلـت لأمها الشمعة التـي أخذتها خفية عن أهل السمر، فوجدتها تئـن وحبيبات العرق تتقاطر مـن جبينها وذقنهـا، والصفرة تعلو ذلك

الوجه الشاحب، كانت مجنونة الريف تضغط على أسنانها، فكأنها تكتم بركان أنين والعرق يتصبب منها بغزارة كأنها تعيش ساعة المخاض العسير.. ألا تنامين ساعة؟.. ألم يرقك الفراش هذه الليلة؟.. دعي الشاة وخرافها تنام، لا توقظيها بدورانك حولها.. تعالي أماه! سأجعل فراشك وثيرًا.. أماه، ألا تسمعين.. دعي الركائز والأعمدة، لماذا تتشبثين بها.. لماذا تتعلقين بها هكذا؟.. إذا كنت قد فقدت القدرة على المسير فاتكئي علي أوصلك إلى السرير الوثير.. الوجه أصفر شاحب.. والصوت حزين مبحوح شجي، كانت تئن أنينًا نزلت له دموع الطفلة المتحدية للدموع، وارتجفت له فرائصها المتحدية للخوف.. وكان العرق البارد يغسل وجهها ويبلل سائر جسمها، فالتصق به ملابسها المهترئة، والطفلة تمسح أوديته، وتحاول مساعدة أمها؛ لتعود إلى مكانها، لكنها كانت تمسك الركيزة بقوة غريبة لم تفهم الطفلة سرها...

وأخيرًا تراخت يدها.. وسقطت إلى الأرض وحبيبات العرق البارد تملأ وجهها في شبه غيبوبة، وإذا بصرخة حياة تملأ مسامع الطفلة، صرخة طفل جديد يطالب بحقه في الحياة، ملأ الذهول وجه الطفلة المرأة.. لم تكن تعرف غير البكاء، كانت أحلامها الباردة تحترق.. وكيانها يرتعش، شعرت بقوة خفية تخرس لسانها عن الاستنجاد بأهل القرية.

وفي غير شعور منها حملت ذلك الدلو المعلق في ركن المجنونة، وسكبته بقوة على وجهها، فإذا بها تستفيق من غيبوبتها، وتجلس وبأظافرها المتسخة قطعت سرته.. وغطته بكفيها الملوثتين: «أماه.. أماه.. أماه.. أهو مولود جديد؟.. أهو مجنون جديد.. مادام ابن المجنونة؟.. أرني أخي أقبله يا أمي».

كان نائمًا فـوق الثرى جثة هامدة، باردة كالجليد.. مولود قدر له أن يصرخ صرخة واحدة ثم يمضي تاركاً ألغازًا عظيمة في ذهن أخته.. خرج مـن هناك ليقول لأولئـك الشداد الغلاظ بصرخة واحـدة: إنما الجنون مـا اخترعتموه بزيفكم وظلمكم.. إنمـا الجنون ما أوحت لكم به أنفسكم المريضـة، ونزواتكـم الترابية المنحطـة.. إنما الجنـون أن أجيء ظلمًا وعدوانًا.. واغتصابًا للإرادة، وتطاولاً على مواثيق السماء الغليظة..

هي صاحية وأنتم المجانين.. بعد أن أرغمتموها على تغييب عقلها، وعلى البحث عنه في خضم جنونكم العظيم.

أمـي.. لم هو بارد هكذا..؟ أريد أن أضمه إلى صدري.. أن أقبله.. ألا يتحـرك.. أهـو ميت؟!. أماه لم تركته يذهب فـي دقائق معدودات.. وأنـا في أمس الحاجة إليـه.. لماذا يا أمي.. لماذا؟ نظرت إلى ابنتها.. هو أخوك.. ولكن أباه.. ودست عينيها في التراب؛ حياء من الطفلة التي لـم تفهم شيئًـا، ولن تحلم.. ولن يسمح لها القانـون البشري بعد اليوم أحلامًا كبارًا..

نهضت المجنونة من مكانها مثقلة، وراحت تحفر بأظافرها حفرة؛ لتـواري فيها خطيئة هذه القريـة الظالم أهلها.. ولكـن ريحًا صرصرًا عاتيـة هبت فجأة، أطفأت شمعة الطفلة الذاهلة.. وراحت تذرو التراب والتبـن في وجههـا.. وتواري جثـة المولود البريء.. كانـت تعصف في جنون، تزأر في غيظ رهيب.. تلتهم كل ما يقع أمامها.. اقتلعت الأشجار، عـرت البيوت من أسقفها؛ لتكشف للناس خطاياهم العظيمة.. لتكشف للظالميـن جنونهـم.. نهض الجميـع مذعورين مهرولين إلـى العراء.. قالوا: أنى هذا؟.. قل: هو من عند أنفسكم..!

تائهة في محطات الدنى

أعطنـي الكيس الكبيـر، فلعل النوم يـا أمي، يغلب منـك الجفون، وتنامين...، ربمـا كان ثقيلاً.. ويضيع الكيس يا أمـي، وتضيعين... هي أيـدي السوء - يا أمي - على كل الـدروب، تسرق الحق جهارًا بأساليب الذئاب الوادعة.

أعطنـي الكيـس الكبير؛ لأخفيه بعيدًا، بين أغـوار الفؤاد، فلعل الريح يا أمي، تهب مـن صفير القاطرة، ومن الأيدي الظماء، ولعل العمر يا أمي يضيع، ضياع المحفظة.. ولعل الناس قد شموا عبير الكيس يا أمي، فجاؤوا لاهثيـن.. عجلوا الخطو سراعًا خلف تلـك الرائحة، وجروا خلف فراسات الأنوف الجائعة.

هـم يغطون المـكان، انظـري ذاك البريـق، انظـري ذاك اللهيب فـي العيون الجائعـة، انظري ذاك الحريق يجـرح الأحداق. ربما ذابت خلايـاه، ومدت ظفرها نحـو ذاك الكيس، هو عمر من جهاد، أتضحين بـه، أتمدين خباياه هدايا للجياع. أعطني الكيس الكبير، فزمان النهب

لا يوجـد عذرًا للشيوخ، وزمان النهب لا يصنع عـذرًا للنيام البلهاء من أمثالـك يـا أمي، وأمثـال أبي. أعطنـي الكيس الكبير، فلعـل النظرات الوقحـات تعلم أنك حبلى بألف من وريقـات الذهب، تعرف في عينيك الذابلتين الخائفتين أنك حبلى بأوراق الحياة.

مـدت الكف الهزيـل نحو ذاك الكيس، أخرجت كنـز الشباب بأيادٍ راجفة، هي أيدي الشيب والعمر الطويل، وذخر الجد والكد المرير.

أو تدرين أني ما رأيت أطهر منك قديمًا، أو تدرين أني ما عرفت مثلك فـي الطهـر، ما وجدت صنوك في هـذا الصفو يا أمي، علـى مر سنيّ، ما رأيت مثلك في الحشمة أو ثوب الوقار.. فتعالي أدفع اليوم لزامًا ثمن ذاك الحياء، وتعالي نشرب اليوم رحيق الطهر فيك يا أمي، وأدفع من جيبي ثمن ذاك الصفاء.. أو ليكن من جيبك يا أمي، ومن جيبي فخر واعتزاز وكلام، إذ رضعت الجود منك، فأعطيت الثناء، وجف الجيب من كل عطاء.

هذه الحلوى، شكلوها، جعلوها منحة لاتصلح إلا للشيوخ العاجزين، جربيهـا، ربما لم تطعميها منـذ أن كنت صبية. اشربـي الشاي فقد لا تشربينه بعد ساعات قصار، اشربي كأسًا وكأسًا من رحيق الكيس!.

قد تجوعين، ولا تلقين قوتًا بعد ساعات قليلة، وأنا أعرف أن الدمع فيك مثل أنهـار الشتاء، اهدئي الآن ونامي، ريثمـا يأتي دوي القاطرة، عندهـا أوقظـك فـي همس ورفـق، عندها يوقظـك الصفيـر وصوت الراحلين، وصوت اللاهثين خلف الكنز والعمر وأطياف البريق.

أبصـرت في نومهـا حلمًا، أبصرت فـي حلمها كابوسًـا ثقيلاً يطرزه السـواد. رأت الشيطـان في ثوب البشـر يلبس بذّلة زرقـاء، زرقة البحر،

ولباسًا تحتها أسود، ورأت سمرته العذبة والقد الجميل، ورأته يطعن قلبها المرهق، المثقل بأصناف الهموم، يرميه بسهام من ذهب، ونسيمات ابتسام عذب ذراها على جرح الفؤاد. فبكت ضحكاً، غرقت في بحر الدموع الباسمات الضاحكات. ذا الذي فرش لها الأرض بأنواع العذاب ونفاق الكلمات المفرغات من كل حنين. بينما مدت يديها تقلع السهم الرشيق، أو تخبئه، أو تزيد السهم غورًا وكتمًا للعذاب وجحودًا بالفؤاد.. ملأ الدنيا صفير ونداء، يوقظ النوم الغفل؛ كي يبدأ الرحيل!! نهضت ذعرًا ورؤياها المخيفة تملأ كل مكان، ما رأت في عمرها المثقل شيطانًا!! واليوم تراه.. أي نحس، أي كابوس ثقيل هز قلب الأم، فارتجفت يداها؟

تاهت العينان منها في فلول الذاهبين، القادمين، الراكضين الصاعدين، النازلين الساحبين، الحاملين أكياس المتاع. ومتاع العمر منها بين أحضان فتاها. وفتاها الآن ضاع.

ذعر الخطو لديها في زحام الناس. صاعد يدفع ساقيها الضعيفتين للأمام، ونزول يحبسون الخطوات الهزل من منها، كي يرجعوها، فتعود حيث كانت، ربما أخرجها الحشد إلى باب الزمان، ربما تقذف الساعة بالابن الشقي، فصفير القطر ينبي بالرحيل.

لاحت العين بعيدًا في زحام اللاهثين.. رنت العينان.. ربما تلقاه أو تلقى دليلاً قبل أن يمشي القطار. يا بني، أرأيت عندما كنا جلوسًا ذلك الشاب الذي كان أمامك، ذلك الباسم الثغر البهي «أرأيته» هو ابني.. أرأيته.. زاحم الجارين بالمناكب، لم يعِرْ أي اهتمام لصدى صوتها المبحوح من جرح الفجيعة.

يتلاشى صوتها الباكي وتذوي الأحرف. ليس في الميدان غير هاءات سكوت.. أرأيت.. يه.. يه.. يه.. قد تلاشت بأعماق الضجيج.. وتلوت ساقها المتعبة في موج الزحام. أمسكت كف الفتى الجاري إلى باب القطار.. يا ولدي، هو في قدك، هو في عمرك، كان قبل الحلم، قبل النوم جنبي، أرأيته.. سحب الكف بعنف وامتطى القطر، وناداها: أجلي الرحلة يا أمي، وعودي، فليالي البحث طوفان مخاطر، وتلاشت كلماته في صوت القطار.

ما بقي في الناس إلا سكن في الركن منذ الأزل، هو مجنون تسمر في أرض جنونه، وأبى أن يرحل عنها، إذ بها ذكرى جراحه، وعذاب العقل قبل أن يخفى ويشفى بغيابه.

سألته عن فتاها الفارس الحلو المدلل.. تمتم بحكمة العمر الشقي؛ خشية أن تقرأ في عينيه سر السكن الدائم في أرض الذي غاب من غير إياب؛ خشية أن تنوي المبيت، حتى يأتيها أناسيها أو تنوي الإقامة. ليس في الدنيا سواها، وسوى المجنون أو ذاك الصبي الذاهل العينين، الباسط كفيه منذ ساعات المخاض..

صرخ القلب الشجي، هو أعمى ولكنه يشبه ابني عندما كان صبيًّا، يا بني، أسمعت خطواته وحفيف البِذْلة الزرقاء من صنع الذي خلف البحار، كان في صمتك، في بشرك عندما كان صبيًّا.. كان مثلك أسود الشعر وسيمًا، أسمعته، أرأيته؟

قلبها يبحث عن ابن الثلاثين ربيعًا، ناسيًا كيس الثلاثين ربيعًا، في زمان ربما كان قلبه في الكيس الربيع.. خرجت تجري، وذعر القلب

يلـوي الخطوات، أرأيتـم ولدًا في عمر الزهور، أملس الشعر بهي القد أسمر، فاتنًا يلبس بِذْلة زرقاء، زرقة البحر، وقميصًا تحتها أسود.

ويجـف الصوت والريق من حلق العجوز، وتظل الخطوات العاثرات فـي صـراع للطريـق، أرأيتم ولدي الـذي حلم الجفن بيـوم يصبح فيه عريسًا، فشقت كفاي، كفانا.. حتى ملأت للعرس كيسًا.. وتلاشى الحلم من حولي، وكان الخبر المشؤوم من حلم شقي مثل عمري.

صـور أخذت تطفـو على سطـح خيـال الأم.. تتلاطـم.. تتداخل، تتزاحـم.. أخذت بعضـ مزاياها من خيـال صورة الشيطـان في ذاك المنـام، وبقايا الصورة للابن المضـاع أو المضيع، خالطت سمرة هذا سمـرة ذاك، وتلاشت من أمام العين منها الزرقتان، وغدا الأسود لونًا واحـدًا، وغدا الطيفان شخصًا واحدًا.. ومضت تلك العجوز تبحث عن ابنها حينًا.. وعن الشيطان آخر.. في محطات الوطن..

قلوب باردة

خبروها عن زمان الغابرين وهي طفلة، عن زمان القحط منذ أعوام طويلة، عن زمان شح فيه المطر، وضروع الأرض جفت والجياع للديار الخربات الجائعات هجروا.. رحلوا خلف سراب الحبة الصفراء، ومشوا خلف سراب القطرات النضرة.

خبروها عن زوال الغابرين.. منذ أحقاب السنين، عندما كانت بلاد الغرب تنهش أرض المسلمين.. خبروها أن في التاريخ أمًّا مات في قلبها حب أزلي، وتهاوت في حناياه مرابيع الأمومة، وتلاشت عطفة الرحم المأمور بالرحمة واختلت رسومه، وحنان الكبد الحرى تغرب وهمومه.

خبروا ابنة عشرة الأعوام وعام عن جحيم ليس من عمر صباها، نبؤوها أن في التاريخ أمًّا من صرير الجوع أبكت طفلتيها.

كلما حبكوا القصة في صدق شجي فاض بالدمع حشاها، وصارت الطفلة كلما حنت إلى دمع يبرد جرحها الدامي استجارت بالتاريخ، ولجأت إلى ذاكرة الزمن؛ لتروي قصة تبكي بكاءً مرًّا لبكائها.

نبؤوهـا لأن أعوامًـا عجافًا حطـت الرحل على أرضـ الوطن، بعد نهـب من فرنسا ونضوب للسمـاء، خرج الخلق على إثر صداها يلقطون الرزق من عمر السراب، يأكلـون القيظ يستفون التراب، خرجت خلف الحيارى تمضغ الجوع طعامًا وشرابًا، والبنات الجائعات يأكلن العذاب، يتجرعن هموم اليتم والنسيان والتهميش في أرض الخراب، ويجرجرن الخطا خلف خطاها؛ حتى لا يضيع الركب عنهن، وإلا ضاع للأم طريق النـور واسودت سماها. غير أن الجـوع والعري وأصناف المظالم هدت السيقان عن السير، فغار الركب عن عين الحمائم، لم يعد غير السراب والظمأ المحرق والجوع السحيق، وتراءت لليتامى صرخات الجوع أطباق رحيـق، وتلظت للحنايا شعلات من حريق. خضن في الدرب عميًا، بعد أن ضاع الطريق، ومحت هبة ريح آثار الحداة.

تاهت الأم وابنتاها، وعفـا الجوع على الفكر، فأبلى خبرة الماضي بأنـواع الدروب، خضن في الشوك وطوفـان الحجارة، خضن في جوف الصحارى.

نامـت البنتـان بعدما أعياهمـا الحر وتيه الدرب وخلـو الراحتين، نامت البنتان بحكاياها عن الخبز وأحلام الرغيف، غير أن الجوع فيها لـم يـدع للجفن نومًا، قبعت كالظـل تحت الظل تبكـي لشقاها.. لحظة حلـم.. ساعة حلم سخي.. جاءها اليسر مع نار الظهيرة، بينما البنتان فـي نوم عميـق، لاح من عينيهـا أطياف بريـق.. رمقته بعيـون ذاهلة، أرغيف بعد أعوام وأيام عجـاف.. أأصدق؟.. أو يكفي جوعي المحموم من صبر عقيم.

جـرت الأم بشـوق نحو تلك التلـة الصفراء، مدّت اليـد المرتعشة المعرورقـة الهزيلـة، اختطفـت الرغيـف اليابـس المغلـف بطبقة من الرمـل، وكأنها تخشى أن تسبقها إليه يد أخرى، فرحة لم يعرف القلب لها مثيلاً، نفضته من بقايا الرمل، ونسيت حق النيام في ذاك الرغيف، لملمته مثلما جرح يلملم، ومحت آثاره؛ حتى لا تراها الطفلتان.

حللت طفلة العشرة أعوام وعـام قصة الأم وابنتيها طويلاً.. قصة كانـت عـزاء ودواء، قصة كانت ملاذًا، كلمـا رأت الزيف تحكم ارتمت بين ثناياها وأحضان الدموع.

وأخيـرًا وجـدت عذرًا لـذاك القلـب لما لفـظ وحـي الأمومة، هو طوفان من الجوع، هو طوفان من اليتم، طوفان من الترمل وظلم الناس ونسيانهـم، أنسى الأم يومًا قلبها. فكفاها أن محت الآثار عنها، وكفاها أن جلسـت خلف تلـك التلة الصفـراء وأخفت مـوت ذاك القبس الحر المنير، لم ترَ البنتان حقدًا، لم تر البنتان جورًا.

رحـم الله زمانًـا كان للحق إذا ما مات فـي القلب ستارًا، رحم الله زمانًا لم نرَ الزيف والعصيان والظلم جهارًا.

في زمان الزيف أشقت الطفلة ذاك العقل في البحث عن عذر لتلك الجامدة، قلبها مفـرغ من الرحمة والحب، من عطف الأمومة، هو قلب مـن حجـارة، ربما أقسى مـن الحجـارة ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ليسـ في العينين غير بحر من غضـب، ليس في الكفين غير الصفعات، ليس في الثغر غير نفثات من جحيم وصخب.

جردت القلب مما قذف الرحمن فيه من محبة لفلذات الكبد، للذي منها أتى.. قتلت في اليد منها الرحمة، قبرت في الثغر طهر المنطق.

قتلت طفلتها الصغرى، إذ رمتها بالحقيقة، قالت الطفلة في صوتها الباكي الجريح: «أماه، إني أكرهك، إذ رضعت الكره منك وتعلمت سجاياك المريضة.. أكرهك، إذ رأيت الحقد فيك بركان حمم.. أكرهك..! أرأيت أم أسماء وعمرو كيف تحنو، كيف تدعو.. كيف ترنو.. كيف تعتب، عتبها جنة فيحاء وحنوك نفس من جهنم.

صفعتها.. أردفت صفع اليدين بسهام النظرات الغاضبة.. بسيول الكلمات الجارفة.. ب.. ب.. جلست في الركن حيرى تتألم.. تتأمل.. لم تجب بعدها صوتًا.

وأخيرًا قتلت طفلتها.. ليس شنقًا، ليس خنقًا، ليس إعدامًا على جرأتها، إنما قتل طويل ومرير.. إنما قتل مهول.. قتلتها عبر أعوام ببرد الصمت، برد المنع، برد الردع، برد الحجر والتهميش.. أطعمتها كل أطباق المنون، قتلتها قتلة باردة.. وأماتتها سنين.. غيبت عقلها الطفل؛ حتى لا يرى الظلم سنين.. رحلت عن عالم العقل إلى دنيا الجنون.. هربت من عالم الزيف إلى دنيا اليقين.. رحلت عن ذلك القبر المؤبد.. غادرت ذاك العذاب.

هم مجانين، ولكن لهم العذر إذا جنوا.. لهم العذر إذا تركوا الدنيا لأصناف الذئاب. لهم العذر إذا لهثوا ظمأى وراء أطياف السراب.. هم مجانين ولكن عقلاء، يعرفون الحق والعدل، يعرفون الحب والطهر، يعرفون الخير والرحمة.. هم مجانين ولكن عقلاء. قصتان

كانتا السجـن لبنت العشرة أعوام وعام، قصتـان كانتا البلسم من كل سقام.. فجأة أوحى لها عمرها المسفوح بالبون البعيد بين القصتين.. أصبحـت تجلس بين الحدثين.. حكمًا يبحث عن أعذار للجانيتين ربما كان جـواز سفر الأولى جفاف، ربما صريـر الجوع بين أعوام عجاف.. ليس للأخرى معاذير غير ذاك الموت في غور الفؤاد.

خبروها عن زمان الغابرين بخطاياه البريئة، ونسوا أن زمان اليوم طوفان قلوب باردة.

بحيرة الأكدار

الأرض غارقة في أوحالها.. الحفر امتلأت ماءً وأكدارًا، والناس يمشون بحذر، يمرون على ذلك التمثال التائه، وهو يتأمل في تيه خطواتهم الرشيقة وحركاتهم اللطيفة؛ خشية الوقوع في الوحل.

كان يحيى يسير بلا مبالاة فوق بساط من الوحل، تغرق رجلاه مرة في بركة من الأكدار، كما يغرق عقله هناك في برك من الآلام والأكدار.. الطريق يمتد، والوحل يشتد، ويحيى يسير ويتأمل وجوه هؤلاء المقبلين المدبرين وقسماتهم التي ليست كقسماته، فقد كان ساهي الحجى.. مغبرة قسماته، وعيناه كانتا تحملان ألمًا قاتمًا، يغلفهما السواد ويتمرد عليه بصيص من الأمل الباهت، يكاد يختنق فيهما تحت سواد الحزن المطبق. يقتلع الرجل تلو الأخرى، ويمضي في تحديه المرير للمجهول، وكلما وقعت قدماه المتعبتان في بركة امتدت اليدان الحائرتان، الباحثتان عن عمل؛ لتنفض ما تثبت بالساقين من أكدار..

العـذاب يغزو الفـؤاد والحيـرة، يصارعهما الأمـل العليل، ويحيى يسيـر، وبرغم البرد يتصبب العرق من جبينـه الغاضب النادم، فتمتد اليـد إلى الجبين المكفهر؛ لتمسح ما تراكم فوقه من قطرات عرق، لم يكن ليفكر فيها أمام هذا الطريق المملوء حفرًا وأكدارًا وطينًا:

- لماذا لا ترمم تلك الطرق الجريحة، لماذا لا تملأ الحفر الفاتحة الأفواه بالأكدار البشرية.. لا الطين..؟!

ومر بيحيى الطيف الذي عوده التحية والسلام، فعطف عليه كعادته بتلك النظرة الشزرة التي أطعمه سمها أيامًا، ذلك الطيف الذي انتظر يحيى منه الدواء وعلق عليـه الأمل الكبير، أخذ يعبث بأسئلته الممزقة ويطـرب أذنيـه بقذائف من نـار، ولم تعـد التحية الرقيقـة الطيبة إلا حلمًـا باهتًا كباقي أحلام يحيـى المتبخرة أو النائمـة إلى أجل مسمى وغيـر مسمى، مـلأت الندامة قلبـه للمرة الألف، وعذبـت الفؤاد الذي وعـد النفس بترك هذا الطريق الذي يلقى فيه من كان بالأمس صديقًا صيرته الليالي معذبًا:

- نظراتـك أخي تعذبني.. تمزقني، كلما أتيتك تذكرت الماضي والحاضـر والمستقبل، وتذكـرت المفاهيم حين تختلـط ويصبح الكل ضياعًـا، ارحم فؤادي من سهام لحظك القاتلـة يا أخي.. جنبني فقط نظراتك البركان، نظراتك السهم الصقيل.. نظراتك العتاب المر بعد أن فات الأوان..!

لمـاذا ألقـى طيفك صبـاح مساء، أكتـب علي الشقـاء؟ ألأنه صار مهندسًا؟! بل ألقاه لأنني أصبحت جوال طرق.. لأنني دخلت بحر الأكدار

مـرة فخرجت ملوث الثوب، مكلوم الجـوى. ألا تطهر هذه الأردان.. ألا يغسـل ما علق بي من الأكـدار؟! إذا لم تعني أنت -يا من كنت صديقًا- على غسل ثوبي وعقلي وقلبي فمن؟ أم تريدني مهندسًا؛ لأنك مهندس، أو أب يريدنـي كاتبًا؛ لأن قريبه أو ابن قريبـه كاتب، وأخ يريدني معلما لأن شقيق صديقه معلم..؟ لكن لا تخف، سأطهر ثوبي وقلبي لا محالة، سوف أرحل عـن طريقك.. لن ألقاك بعد الآن، لن أتجرع سم نظراتك القاسيـة، سأختـار طريقًـا جديدًا يوقـظ أحلامي مـن سباتها العميق ويحييها من موتها الأبدي..».

قـد يبحث عن طريق جديد، وقد يجـد طريقًا، ولكن أيخلو الطريق من المـارة؟.. إنه يريد طريقًا يسير فيه وحـده؛ حتى لا يرى القسمات المؤنبـة الغاضبة، طريقًا تملؤه البرك والأكدار والحجارة، ليجلس عند إحـدى بركه الراكدة؛ ليرى فـوق سطحها قسمات وجهه، وقد امتزجت بما في الأعماق من بقايا، ويسأل نفسه:

متى ستشرق هذه القسمات..؟ لن تشرق حتى تبلغ قمة السوادا.

لقـد دلته خبـرة نصف عام من التجـوال أنها لن تشـرق ما دامت الطرقـات الهادئـة النائمة لا تخلو صبـاح مساء ممـن يصوبون سهام لحظهم القاتلة وقذائف أفواههم المحرقة إلى فؤاده المتعب..

- حتـى هـؤلاء الذين لم يتمرغوا فـي الأوحال حالكـة قسماتهم.. لمـاذا القسمات المكفهرة؟ أيوجد بينكم مثلـي تبحّر في بركة الأكدار ثـم خرج منهـا، مبلل الثوب، مجروح السـاق والقلـب، لماذا لا تنظرون إلـى جرح الأعماق، فالثوب وجرح الساق اندمل.. أما القلب فلا تعلمون

مـا به؛ لأنكم -أيهـا السادة- تجهلون عمق البركة التـي هويت فيها أنا وأمثالي.. ولكنكـم وأنتم معذورون، فأنا لم أكن أعرف مدى عمق جرح من هوى قبـل سقوطي، وهأنذا الآن.. والآن فقـط تحت سهام لُحُظكم الجارحة أدركت مدى العمق ومدى الجرح..».

تذكر يحيى طريقًا خلف المدينة الصغيرة لا يؤدي إلى أي مكان عدا المقبـرة النائمة، طريقًا يؤدي إلى النهاية، نهاية الحياة.. غمرته نشوة من فـرح.. اهتز الفؤاد ورقصت النفس المثقلـة بالعذاب عندما تذكر هـذا الطريق الهادئ، المتنعم بوحدته وهدوئـه، وإن كان صفوه مهددًا بين الحين والحين بمن يقتلون صمته العظيم.. تمنى لو كان مثله هادئًا صامتًا، تمنى لو يقبله رفيقًا بعدما صد الأحبة عنه ولفظوه.

راح يمشي، تقوده خطواته إليه بخفة، والفرح يغمر النفس والإشراقة الضئيلـة تصارع مسحة الألم والسـواد الغامضة.. لأول مرة منذ شهور عديـدة يشعـر بالسعادة، فقد أصبحـت لديه غاية يسعـى إليها، وربما عمل!.. عجل في السير؛ ليراه ويرى ما يمتد حوله من أشجار اللوز التي تسلقها يوم كان العمر ربيعًا.

كان يحيـى يمشـي بخطى عريضة واسعة، غيـر عابئ بقطع الطين التي كانت تتطاير من حذائه القديم المتآكل فتلتصق مرة بالساق ومرة بالظهر، وتعود لتنام مرة أخرى حيث كانت، العينان تحلمان بالسكينة، تبحثان عن قمم الأشجار العالية، الساكنة بين أحضان المقبرة وأشجار اللوز الممتدة حولها، أو السدر الممتد عبر الطريق الوحيد الهادئ، ولا شيء يطل، غطت البنايات بتطاولها الزائف كل شيء.

هبت الريح وراحت تعبث بطاقة يحيى، فتتقلص خطواته، ولكنه ظل يقاوم ويدفع النفس ببطء وعناء، لا همَّ له سوى الوصول؛ ليرى أرضًا نامت فيها بعض ذكرياته.. يوم كان الرفاق يتكتلون لحفظ الدروس وتبادل الحكايا.. كان يحيى ينفرد في هذا المكان النائم، المطبق على أحلامه وآلامه؛ ليجلس تحت شجرة اللوز.. ليسأل هذه الشجرة التي قد تدب الشيخوخة في عروقها عن حقيقة:

أكسول حقًّا أنا؟ أماجن حقًّا أنا؟!

ملأت عليه الأسئلة الحزينة الطريق وراح الذهن المتعب يحشد السؤال تلو السؤال؛ عسى شجرة اللوز أو الصخرة القابعة تحتها تجيبانه، فلا أحد يعرفه أكثر منهما.. لكن قد يعرفه بحر الأكدار أكثر منهما..!

كم آنس وحدتهما صيفًا وربيعًا.. وشتاء وخريفًا غير مبالٍ ببرد الشتاء ولظى الصيف.. اقترب من رفيقي الطفولة؛ علهما يؤنسانه وينسيانه، علهما يقتلان وحدته وغربته كما قتل وحدتهما وغربتهما في زمن مضى.

الأسئلة تدور في الذهن المتعب ويحيى يسير.. يكاد يجري، يدفعه الشوق والحنين إلى رفيق عافه الناس وخافوه! وهل يصادقون المقابر والأماكن القفر الخاوية؟! إنهم لا يؤمون إلا نوادي الضجيج والسخط، وتأبى نفوسهم عظمة الصمت وفلسفته. أما يحيى فقد أدرك معنى صمت ذلك المكان.. وحديثه الصامت الموحي.. وصمت الكتاب وهمسه الهادئ فصادقهما، لكن لم يعد يقوى على قراءة سطر.. أما

صمت المقابر، فما زال يملأ نفسه بالطمأنينة والوقار.. ويستحثه على قراءة سطوره.

بينما يحيى يلم بالوصول لاحت له شجرة اللوز المتعالية، وبدأت أشجار السرو تعانق عينيه.. مدّ البصر إلى الطريق بعد أن متعه برؤوس الأشجار المتعالية، كان صفحة عارية، لا شيء فيه غير الحجارة والبرك الراكدة، أين السدر الذي كان يزين الطريق، ويضفي على المقبرة هالة من الوقار والهدوء؟! ربما خافوا أن تعلق أشواكه بموتاهم.. ولماذا تركوا البرك، وقد يهوي فيها أحدهم..؟! أسئلة وأسئلة تزاحم النفس المتعبة، الباحثة عن الطمأنينة التي طالما طلبتها، منذ أن حط يحيى الرحال هنا، منذ أن لفظته أرض العذاب من أكدارها كما تلفظ الفضلات، وهو يبحث.. قادته قدماه المتعبتان إلى شجرة اللوز، فارتمى تحتها.. وتداعت ذكرياته.. كم عزف لهذه الشجرة من ألحانه العذبة! كم ضحك تحتها بنغمات نايه! وبكى أيضًا تحتها بألحان نايه المعذب، الذي لا يسمح له القانون بالنوم بين أحضان البيت، بينما تنام في أمن البيوت الأفاعي والعقارب، وتتراكم فيها الرزايا والدنايا والخطايا ولا أحد يراها..

يوم كان في ماضيه القريب أو البعيد كان يقرأ تحت ظل هذه الشجرة، وإذا ما غزاه الملل جرى إلى حيث ينام الناي خلف ثرى أحد القبور الدارسة.. ليعزف لنفسه ولكل من حوله من كائنات ألحانًا تنسكب عبرها مشاعره الغامضة، ثم يتركه لينام، ويعود أدراجه إلى البيت. أو مازال الناي في مكانه؟! لا يهم؛ لأن يحيى في غير حاجة إليه، لكنه الآن بحاجة إلى صمت أكبر وهدوء، ربما يعزف غدًا أو بعد غد

عندما يعلن الطريق والمقبرة قبولهما لهذا الشبح الذي جاء لينافسهما في صمتهما العجيب الرهيب.. العبقري..

جلس يحيى على الصخرة المبللة، وراح يتأمل الأوراق الخضراء، وقد غطت الأغصان والأزهار البيضاء، وهي تضحك للوجود. في مثل هذا الوقت، يوم كانت الأقدار تقوده إلى هذا المكان يجد الشجرة قد أنجبت حبًا، عجبًا، شهر من الربيع يمضي، أكثر من شهر ولم تنجب.. كانت قبل أربع سنوات تزهر في الشتاء، وتتحدى بردها؛لتنجب الحب ربيعًا.. أربعة أعوام من العمر المتثاقل كفيلة بتغيير كل شيء.. تتغير فيها حياة الإنسان.. حتى شجرة اللوز غيرت عادتها، الطريق تبدل.. إنها الأيام التي تأتي على كل شيء..

سرت إليه البرودة القاسية.. بلغت حتى الوريد، وهو جالس يسأل الشجرة.. ينتظر بوحها بالسر الدفين الذي عرفته، بالحق المبين الذي عهدته من هذا الرجل أو الطفل.. فكانت هبات الريح الخفيفة تدغدغ الأغصان فتتهامس الأوراق والأزهار، تتناجى بالجواب وينتشي يحيى طربًا؛ لأنه يفهم لغة الصمت والهمس ولغة النجوى، هكذا كانت ترقص الأنغام نايه. وها هي الآن ومهما تأخر الإنجاب، وحتى إن لم تنجب تشاركه صمته ووحدته، وتبوح له بحقائق تناستها قلوب الأحبة.

استرخى يحيى.. غرق في تأملاته عن عمر الشجرة الطويل.. شاخت ولم تعد تنجب لوزًا، هذه هي الحقيقة.. وأهمها العقم.. قد تنجب في أواخر الفصل حبات، ثم تبلى ولا تبقى سوى ذكريات اللوز المر.. ليتها تنجب حتى الحجارة..

تمنيــات غريبــة.. سبح إثرها يحيــى في بحر هــادئ من الأحلام الغريبــة الغامضة والأماني الباهتة.. تمنى لو يكون حفار قبور.. أو زارع حقول.. أن تتحرك يداه، أن تفعلا أي شيء، ولتبحر النفس حيث شاءت، ولتسبح العينان حيث شاءتا.

حــركات خفيفة سريعة لم تشأ قطع تيــار أحلامه، خطوات خفيفة لا يــكاد يسمع وقعها، بل لتكن قوية، عنيفة، لتكن إعصارًا، قنبلة.. فلن تخــرج يحيى مــن عالمه السعيد الذي اكتشفه لتــوه بعد عذاب التجوال المريــر والعيون المؤنبــة، لن تطفئ إشراقة عينيــه هموم الزمان، ولن يقتــل جنين الفرحة الــذي أنجبه القلب أي شــيء.. تلاشت تحية طيبة طاهرة في الفضاء ويحيى مازال شاخصًا.. ومر الطيف قربه بحركاته الخفيفة السريعة.. وفجأة توقف أحمد.. من هذا الذي لا يرد السلام؟! قد يكون مريضاً.. قد يكون غريبًا.. قد يكون..!! استدار أحمد.. اقترب من ذلك الجسم النائم تحت الشجرة بلا روح.. انفرجت شفتاه، أنجبتا نغمــة عذبة « يحيى..» لم يكــن أحمد يصدق عينيه.. استفاق يحيى من غيبوبتــه أو حلمه أو هروبه!! وراح يبادل صديقه.. أعز صديق التحيات والقبلات، وأحمد يتأمل القسمــات المشرقة والهزال الشديد والعينين الذابلتيــن الحالمتيــن.. لقد عهد فيهمــا النظرة البــركان فكيف بهما تفقدان تحديهما.. وكانت عيناه تجيبان على كل سؤال طرحه أو يطرحه أحمــد.. عندما يصبح تحدي العيــون وإشراقها فشلاً يصبح الغرق في بحار الأكدار هو المصير.. هو النهاية..!

غرق يحيى في بحار أكدار أوروبا بذكائه الوقاد وبصيرته النفاذة، ولكنهــم أغرقوه في بحر أوحالها وأكدارها.. هوته صخرة فيها فهوى..

هكذا طرقهم مملوءة بالأكدار وبالنساء وبالحجارة.. ظنه أحمد قد عاد مهندسًا.. وهل تركت له مدنية الأكدار شيئًا.. أخذت كل شيء، لم يعد غير طيف، وربما جثة تحب أن تحيا مع الموتى إلى أن تسترد روحها.. باح لصديقه القديم بكل ما علق به من أكدار وأدران، إلا أن أحمد ظل متفائلاً.. مهما لفظته المدنية ومهما امتصت ذكاءه ورمته بالطيش والحمق وسفهت حلمه وحلم أبناء جلدته فلن يعود صفر اليدين: كلٌّ إلا يحيى..!! ولكنه فوجئ لما أطلعه يحيى على الحقيقة.. اعتراه الذهول لما وجد يحيى الذكاء المتوقد.. ويحيى الإشراقة الوضاءة جوال طرقات.. كلمات أدمت فؤاد يحيى.. ذكرته بماضي التفوق والألمعية.. ولكنه الغرب مسفه أحلامنا.. قتال أخلاقنا.. مدمر أمانينا.. إنني أرفض أن يمنحني الغرب وسام المهندس الذي لم يعلموه إلا الفشل.. مزارع، فلاح.. حفار قبور أطهر من مهندس أعطاه الغرب شهادة، علموه قبول كل شيء حتى الموت البطيء!! اعذرني أخي.. فقد قبلت أشياء لم أكن أظنها من سموم الغرب.. أطعمنيها حب امرأة زائف.. امرأة اصطدمت بها في بركة الأوحال.. ولكنها كانت تقول لي دائما:

إن كل شيء عندهم، حتى الحجارة ضدنا..

كم أتمنى أن أكون فلاحًا.. أن أكون حفار قبور.. ليرى الأهل الذين علقوا علي آمالهم الطويلة أن يدي حين أعود في المساء تشهدان على العمل.. ليتني لم أعد إليهم جوال طرق كما ترى..!!

امتزجت آلامه بفرحته الأولى منذ أن وطئت أقدامه أرض الوطن.. إنها أول مرة يجد فيها من يستمع إليه، لا تهم مشاركته.. المهم أنه

لـم يسخر منه.. لـم يكفه عن نبش بعض آلامه الدفينـة؛ علها تشفى.. تواعدا على اللقاء كل مساء.

مضى يحيى تحركـه الفرحة.. تقوده. مضى وكأنه ولد من جديد.. وعـادت إليـه نظرة الحـب إلى هذه الأرضـ الغالية، هـذه الأرض التي تراءت له في الأشهر الأربعة الماضية مقبرة لجراحاته العميقة، ونفسه المهدمة..

راح يمشـي بخطى هادئة ورزينة، ونفسـ مشرقة، وقسمات مضيئة تتحدى الوحل والطين والكـدر.. تتحدى الغرب.. تتحدى العالم أجمع، تخنـق القتامة والسواد، تنجب من أعماق بحيـرة الأكدار النور المبدد للظلام البشري..

نام نومة هادئة مريحـة ليصحو على حشرجات تخنق صدره الذي لم يعرف الراحة منذ زمن بعيد..

أحسـت والدته أنه يطلب شيئًا، جاءته بقـدح الماء.. لم يكن يقوى على النهوض، كانت الأنفاس تعلو وتهبط، والصدر منقبض، حشرجات متتالية، تكاد لا تخرج الأنفاس من حلقه المنهك المبحوح.. راحت الأم في ذعر تناوله قدح الماء، تذكره بالشهادة..

شهقـات أعقبتهـا حشرجـات متقطعـة.. تخللتها الشهـادة، لفظ أنفاسه الأخيـرة.. أقبل أهل القرية في حذر يقدمون تعازيهم للوالدين ويتساءلـون فـي ذهـول عن السبـب؟! لا أحد يملـك جوابًا غيـر أحمد الـذي كان يعـرف أن الغرب لا يرحـم.. فكان يجيب فـي صمت العيون المستفسرة.. إنه المرض الخبيث عافاكم الله.. إنه السيد «الإيدز».

مناجاة تحت جنح الليل

ما تبقى من عمر النهار يتهاوى تحت أشعة الغروب الذابلة، احمرار فاصفرار كهذه الوجوه الذابلة الظمأى إلى بسمة بريئة صادقة، لا إلى مثل تلك الموسيقى الصاخبة من الضحكات المتموجة.

الوجوه شاحبة، والعيون شاخصة، والذهول ينتاب الجميع، وهم يتحدون الإعياء المفرط، فيزدادون سعادة بهذا التجمع الأخوي، وينسون أتعاب النهار. راود الكل شعور غريب، كل واحد تقول له نفسه الحساسة إلى أقصى حد: إن شيئًا ما سيقتحم هدوءه، ويكتسح جوانحه ليبحر في سفينة سعادته إلى النهاية، ويحرك ما بأعماق ذلك البحر الهادئ الساكن من الرواسب، لتطفو إلى السطح، وتلوث كل ما ارتسم على الوجوه البريئة..

ويكتم كل واحد حدسه الذي تعود السير على إيحائه، وأنه لو حدث مثل هذا أو شبهه فقد يذهب كل واحد منهم باذلاً قصارى جهده لإخفاء عذابه الذي تبوح به قسماته، ونظراته الحائرة، وبسمته القديمة،

وشحوبـه المتغير. نشـؤوا يفهمون جيدًا هذه اللغـة الصامتة ويشعرون بها، ومادامت أرواحهم جنودًا مجندة تقرأ القسمات.. ما من متألم إلا أسعفـوه برغم عجزه عن الأنين، ولماذا يئن مادام صوت نفسه متصلاً بنفوسهم جميعًا؟!

إن شر ما تخشاه هذه الأسرة المتآلفة التصنع والزيف، لقد تعودت الصراحة، وتعودت الوفاء، وتعودت التحدي إلى النهاية.. فهل تستطيع التحدي إلى آخر لحظة؟

جلسـت الأم التـي بيـن الكهولـة والشيخوخـة على بسـاط الأرض الجرداء؛ لتنال قسطها من الراحة بعد أن أعيتها ماكينة الخياطة الآلية التـي ظلـت معظم النهار واقفـة أمامها، حتى الكرسـي تكسر.. حملت بيمناهـا قطعة من بقايا القماش المرميـة، وجففت بها قطرات العرق المتصببة، وراحت تقضي على السكينة بتنهدات عميقة.. متقطعة..

مـا هي إلا لحظات حتـى دخل الابن يئن أنينًا لا يسمعه إلا الله، إنما الـذي يراه من أفـراد هذه الأسرة يشعـر به، ويسمع أنينـه. حيا والدته تحيـة طيبة، وارتمى بجانبها على البساط المحبوب.. الثرى. كان يقطر إعيـاء وعرقًا من شدة الحر وطـول العمل.. وعاد الأبناء الصغار يلهثون من شـدة الظمأ وامتداد الطريق.. عادوا مـن المدرسة النائية يحملون البشرى.. بشرى الانتصار والنجاح غير مبالين بشحوبهم وذبولهم غير المعتـاد، المهم أنهم صارعوا وتحدوا، وهـا هم أولاء الآن يخرجون من صراعهم ذلك، وقد توجت رؤوسهم المتعبة بالنصر، جنوا ثمرة عملهم وكانـوا الأوائل.. كل أملهـم أن يروا بسمة تهنئة مـن الجميع، وكان لهم

ماأرادوا.. ابتسمت الوالدة والأخ الأكبر مهنئين ثلاثتهم بالفوز.. وراحوا يتسابقون إلى برادة الماء لما اشتد بهم الظمأ.. حملها أصغرهم بلهفة، وراح يشرب منها دون توقف والأم تزجره من هناك، وتأمره أن يشرب على مهل وثبات فهو متعب.. شرب حتى الارتواء، بل حتى الثمالة في حين كان أخواه ينتظرانه بفارغ الصبر، بل كانا يلحان عليه بالسرعة.

جلسوا جميعًا تحت ظل ضئيل منحته لهم تلك الشجيرات الصغيرة التي سقيت من عرق الجميع، ما من يد إلا قدمت لها جرعة ماء.. فمدت أعناقها اللينة الملتوية تحاول التطاول نحو السماء، وبرغم الظمأ امتدت ومنحت الجميع ظلاً.. لكنهم الآن في مثل هذا الوقت لم يعودوا بحاجة إلى ظل، فالشمس تتأهب لتوديع الكون لتلقاه غدًا وقد ازدادت حرارة!! ذبل نورها الذي ظل اليوم كله يلفح هذه الوجوه، ويلسع تلك الأجسام الصامدة برغم ذبولها بحرارة قاسية.. كانت هذه الأسرة الصغيرة بحاجة إلى نسيم خفيف أو حتى إلى عزف صاخب من الرياح يجفف عرقها المنسكب، ويمتص طاقتها الزائدة لتسلم كل واحد منهم إلى نوم عميق محاربًا طيف الهواجس..

كان التعب باديًا عليهم.. الكل يتألم، وكل واحد يظن أن لا أحد يشعر به، فيتمنى لو يستطيع التأوه والبكاء.. أو يقول لهم بعبارة صريحة: إني أتألم فهل تشعرون؟ ناسيًا من تراكمات القانون العريق الذي سارت عليه هذه الأسرة البسيطة منذ نشأتها الأولى.. أنها لغة العيون، ولغة القسمات والوجوه، والألم والبسمات.. إنها لغة الأعماق.. لا بأس لسوف يشعر كل واحد بالسعادة؛ لأنه استطاع أن يتحدى الكثير الكثير من عذاباته، ويكبت آلامه المبرحة، وتأوهاته العميقة التي استطاع أن يخنقها، ولم

تصل حلقه بعد.. وحتى إن غلبته وحاولت الانفجار، فإنه يضغط عليها بين شفتيه وقواطعه؛ حتى لا يثقل كاهل الآخرين، وهو يعلم أنهم ليسوا بأفضل حلاً منهم، ويسبح في نفس الآخر، ويقرأ ما ارتسم على محياه. خيم عليهم الصمت زمنًا طويلاً.. اتسعت فيه الجلسة للصمت المعبر، ولرب نظرة أو لحظة خير من ألف كلمة رقيقة شاعرة..

وبينما هم كذلك تراودهم المشاعر نفسها.. رأوا شبحًا مقبلاً من بعيد يحمل كيسًا، أو ربما كان الكيس يحمله لشدة تشبثه به، رجلاه تلتويان لثقل ما تحملان.. نظرات خاطفة تبودلت بين هؤلاء الجلوس.. خفقات كتيار إنذار مفاجئ قذفت بها أرواحهم المرهفة جميعًا، كل منهم ينبئ الآخر بالخطر..

وأي خطر هذا الذي تبادلوا حوله النظرات.. قرأ الابن الأكبر أمرًا ما في عيني والدته المشحونتين كآبة منذ الآن.. فنهض بروح نشطة ونفس متأججة حبًّا وطاعة، ونهض بجسم متثاقل متعب يكاد يهوي على الأرض.. إلا أنه كبح جماحه، وأنبه بعد أن نال بعض قسطه من الراحة.. وراح يسعى جاهدًا؛ ليخفف العبء عنه.. وصدق حدس الجميع وإحساسهم المرهف.. ما كادت عينه تصدق أن هذا الشبح أو هذا التمثال المتهاوي هو والده.. كان شحوبه أكبر، وصفرته أشد، وعياؤه أقوى.. كان الذبول يغزو إشراقة عينيه المعتادة.. إشراقة الفرح بالعودة.. بالتجمع، عيناه غارتا وهو يغمضهما ليكبت آلامه. لكنه كلما فتحهما باحتا لهم بما يعذب صدره من ألم، وكأنهما تصدران آهات عميقة، كما كان وجهه يتأوه.. شخصت أعينهم جميعًا.. جمدت على الشبح المتألم. كانت نظرة شاردة كسماء صحراء ممدودة، لا ساحل

لهـا وكأنها تتوغل في أعماقه؛ لتبحث عن موضع الألم. غير كافٍ، الكل يسأل أهو ألم المعدة؟.. الدماغ؟.. لا بل الكلى.. بل القلب!!.

لعلها ضربة شمس. وكان لكل سؤال من بحر الأسئلة المنساب عليه يومئ برأسه أن لا.. هل هذا ألم مرض محسوس؟!.. كلا.. إنه ألم لا حدود له.. لا حدود لموضع الداء.. هو داء مزمن ولد معه ورافقه طيلة أعوام عمره الزاحفة نحو النهاية.. لقد كانت مساحة الجرح أكبر من حجم الجسم، ولو كان الألم نابعًا من عضو ما لأومأ لهم بذلك حتى تقدم له الأم أحد العقاقير الخاصة التي كان يحضرها بنفسه من قمم الجبال مثلما تعودت، فمرة تحضر شيحًا، وأخرى نعناعًا، أو فيجلاً، أو فاسوخاً، أو زعترًا.. أو.. أو!! كل كيس يحمل دواء خاصًّا، وكانت البركة تنزل في مثل هذه جميعًا، أما اليوم فلا موضع الداء محدود.. ولا الدواء معروف.. هو نفسه لم يكن يعلم موضع الداء أو يشعر به.. الألم بحر ليس يدري إن كان ستثور أمواجه أو يبقى هادئًا.. قد يظنون أنها مجرد آهة بسيطة كسابقاتها، بل كانوا يتمنون أن تكون كذلك، برغم إحساسهم بفظاعتها وقوتها.. الألم يزداد شيئًا فشيئًا.. وهاج البحر، واشتدت العاصفة، وعلا الموج وأزبد!

هنا راح يصدر أنات متتابعة مسموعة وآهات عميقة، أنين نابع من ألم عميق من صدر معذب متألم مستغيث برب العباد.. آهات قصيرة حينًا ولكنها لا تلبث أن تنفجر طويلة وممدودة لا منتهية، الوجه داكن، والعينان مفتوحتان، سابحتان إلى اللانهاية، تشعان بحنان الأبوة وعطفها.. كان كهلاً، لكن من يراه وقد اشتعل رأسه شيبًا يقول: إنه هرم قد بلغ من العمر عتيًّا.

شكلوا حوله دائرة صغيرة، وانتصبت أعينهم حوله. كانوا ينظرون بدقة واهتمام شديدين، متفحصين مخمنين مواطن الداء التي لا تكاد تبرحه عين.. أظلمت قسماته، تصبب العرق.. أخذته حمى ساخنة كأنها النار، وانبعثت من أعماقه آهات باكية.. مستنجدة بمن لا منجد إلا هو، وهل سيجد المرء في مثل هذه اللحظات من يخفف عنه الضر إلا الله؟ حاول الصبر، حاول الكبت، حاول كظم بركان حماه؛ حتى لا يفجع قلوبهم المرهفة، لكنها كانت تنفجر برغم كل شيء، كما لو كانت قد سلت من نفسه الصابرة المتحدية.

قام برغم آلامه وجلس على الأرض رافعًا راحتيه إلى السماء، باسطاً كفيه إلى نعمة الله الكبرى ورحمته التي لا تنقطع، وعيناه تبكيان دموعًا حارة ملؤها الخشوع والتضرع إلى الله، كلمات تنفطر لها الجبال وتتشقق الأرض «يا ألله».. يا رحيم.. يا ذا الجلال والإكرام! رفع الكل أيديهم إلى السماء، مرددين نداءه بأصوات رخية لينة تصعد وتهبط معًا إلى السماء وهي تجأر إلى الله. مناجاة روحية كانت تتصاعد من أفواههم إلى السماء.. نفحات روحية سماوية هبت على تلك الوجوه الشاحبة، والشفاه الظمأى، والحلوق الجافة، والأكف الخشنة المتشققة الهزيلة المنهكة، فاستحال الشحوب إشراقًا، والظمأ ريًّا، والثلوم نعومة.. علا النور الوجوه وهي ضارعة ترجع الأنين، وتعانقت الأعين والأنات والدعوات والأيادي، التقت كل الجوارح حول تلك المائدة التي لن ينضب زادها مادام في الأرض من يرفع راحتيه إلى السماء.

وماتت الفرحة..!

الأنفاس متقطعة، والبرودة تغزو الغرفة الدافئة، فتتسرب إلى الوجوه العارية.. غير أن الجميع كانوا يعرفون معنى الشتاء والبرودة الريفية، فكانت أيديهم الريفية تحوك أغطية للشتاء ينام البرد جنبها دون أن يغزو خيوطها المتعانقة كقلوب هؤلاء جميعًا وعيونهم وأيديهم المتشابكة.

تقلب عمر في فراشه، فارتفع الغطاء قليلاً، وتسربت إليه برودة حادة جمدت له عضلات وجهه، فجذب الغطاء عن أخته وأخفى رأسه الصغير. أغراه الدفء فأطبق على نفسه الكرى يغالب جفنيه، ناسيًا أخته التي تركها نصف مكشوفة، غير أن هذه لم تتحمل هي الأخرى البرودة، فجذبت منه الغطاء بقوة. تقلبت وعلت منها تأوهات وهمهمات، ثم استسلمت للنوم.

راح عمر يتحرك يمينًا وشمالاً دون جدوى، فقد أحكمت الغطاء جيدًا، وراح يتعجب كيف تستطيع جذب الغطاء، وكيف تتحسس لفحات

البــرد وهي نائمة، ثــم أدرك أخيرًا أن برد هذه الليلــة تجاوز كل برد.. ربما لأنه آخر يوم من الشتاء.

أخــذ عمر يغوص شيئًــا فشيئًا داخل الأغطية والــدفء يشده إليه، والنوم.. ما كاد يسلم فكره المشغول إلى النوم حتى اختلطت الأصوات، الأذان الــذي لا يصــل صوته إلــى هذه القريــة إلا ليلاً، ولــولا الليل ما سمعــه، ثــم دوى صــوت المنبــه فــي أركان البيــت، وراح الديــك يجأر بصوتــه، تحرك عمر يمينًــا وشمالاً. ابتدأ الدفء يســري في عروقه.. الــدفء يغريه.. والنوم يطغــى عليه، والأذان ينــادي، أزاح الغطاء عن رأسه ونهض متثاقلاً، والظلام يغلف ما حوله، والبرودة الشتوية تمتزج بــكل شيء في هذا البيت. مشى متثاقلاً.. مودعًا الفراش وأحلام النوم إلــى بــرودة الشتاء، قضى علــى الظلمــة الحالكة بأن بعــث الحياة في شمعته، فغدا خفيفًــا نشيطاً. وكان النور الضئيل والبرودة الغريبة التي تملأ أركان البيت يحثانه على الخفة والنشاط...

الشمعة تحترق، وعمر ينظر إليها بدهشة كبيرة، يتساءل في قرارة نفسه:

لماذا تحيا هذه الشمعة وتموت تدريجيًّا في آنٍ؟! وكيف تستطيع أن تضحك وتبكي في آنٍ؟!

غيــر أن أذان الفجــر ألح عليه، وصياح الديــك يحثه، فمشى نحو الفناء؛ لتلفحه البرودة أكثر.

توضأ بماء بات الثلج ينهمر عليه، وكانت والدته قد استيقظت شاحبة الوجــه، صفراء الجبين. صلى الفتى، وصلى الجميع، ثم التفوا كعادتهم

حـول المائدة والمدفـأة، وراحـوا يستنشقون الدفء الممـزوج ببرودة الشتـاء ويتناولـون فطورهم. اقترب وقـت الخروج، فأطـل عمر برأسه على الجـو يتحسسه، كان الظلام لا يزال مخيمًا، وكان البرد يزداد بين الحيـن والآخـر، ولكنه ظل صامتًـا تائهًا بعد أن كان يمـلأ البيت مرحًا كل صباح بمزاجه وظرفه وابتساماته العذبة الصافية كنفسه الصافية، الجميع ينتظر أن يجود بكلمة.. أن يقول شيئًا ما.. غير أنه ظل قابعًا في مكانه يتأمل هذه الصيحة التي شغلت باله. ران صمت مهيب على البيت بسكـوت النديم الظريف، فبـدا أكثر برودة من ذي قبـل، بل إن الشتاء اغتنـم هذه البرودة التي غزت القلـوب، وجمدت الكلمات في الحناجر، فغـزا زمهريـره الشديد البيـت، وراح ينافس حرارة المدفـأة الضئيلة. طـال انتظاره لمولـود جديد تلقي بـه شفتاه، غير أن وقـت الخروج إلى المدرسة النائيـة قد حان، نهض متثاقلاً وبريق غامض في عينيه، حان وقـت التوشح بالظلام فخرج وأخته مودعين البيت ومن فيه.. مشيا وما كادا يبتعـدان عـن الدار حتى اشتعلت نار الظمأ فـي حلقه برغم البرد، أحسـ باحتراق شديد لن يطفئـه إلا الماء، وليس كل ماء يطفئ حريقه، جرعـة واحدة من يـد والدته الحبيبة تقتل هـذا الحريق، جرعة واحدة من يدها تروي ظمأه المجهول. دخل البيت فجأة فدهش الاثنان لعودته، ليست من عادة عمر أن يعود لماء ولا لغيره. تعود أن يرسل أخته، ناولته والدته ماء باردًا، فراح ينظر إليها حينًا، وإلى والده حينًا آخر.

تجرع قطرات من الماء البارد، ثم انتقل إلى إخوته النيام يتأملهم.. حـرك أختـه الصغرى؛ ليسألها عـن أي نوع من الحلـوى يعود به مساء إليهـا، فقد أعطاه والده دينارًا.. أحـاط البيت ومن فيه بنظرة شاملة،

ثم خرج ليلتحق بأختـه، والوالدان في حيرة من هذا التغيير المفاجئ، فتـارة يظنـان أنه مريض، وحينـا يظنانه يفكر في نتائـج امتحانه، ولا أحـد يعرف ما به، فمسحة الفرحة تعلو وجهه، ولكن ضبابة من الحزن تغلفهـا، فلا يبدو منهـا إلا القليل، وعيناه كانتا تشعـان بنور عجيب. لا خـوف عليه مادام الفـرح في قلبه، ومـادام النور في عينيـه، هذه هي سلوى قلوب الوالدين.

اختلـط عليه الفرح بالحـزن المفاجئ الذي لا يعـرف له سببًا من الخـوف، ولماذا يخاف؟! اليوم ستعطى النتائج، وما له ولها؟! فهو على يقين أنه الأول، وأن أخته هي الأخرى الأولى، كما كان أخوه الأول وأخته الأولـى. الظـلام اليوم لم يسمح لهما بتبين الوقـت، وذهول عمر اليوم وبريق عينيه جعلاهما يصلان متأخرين.

كانـت المعلمة تتحدث، وتنظـر إليه متعجبة من تأخره ومن شروده غيـر المعتاد.. وراحت تعلـن الرتب والجوائز، الذهـول يعتريه، والألم يجتـاز الفـؤاد ويصـارع جنيـن الفرحة الذي أخـذ ينمو بقلبـه، عيناه معلقتـان فيما وراء النافـذة، وأذناه تتسمعان إلـى عصافير تغرد على الأفنـان، تسبح ربها، فينطلق لسانه المضطـرب بالتسبيح والتحميد.. وفجأة عبرت نغمة لطيفة من هذا الحيز الضيق الذي حبس فيه جسمه.. فـي حين أطلق العنان لقلبه وروحه يسبحان، عمر.. الأول..!! ويختطف عمـر، وتعلو البسمة شفتيه، ويملأ النـور عينيه السوداوين السابحتين، ويمشـي بخفـة ورشاقة، ويستلـم دفتـره، وإشراقة عينيـه تفيض على القسم، فتملؤه نورًا، ثم يعود إلى مكانه، وإلى حيث كان قلبه معلقًا.

العصافيـر هذه المرة تغـرد لكنها تحمد ربها وتشكـره على نعمه السابغة، وتسخر من ذلك الإنسان الذي تسمح له نفسه نسيان آلاء الله عليـه، فيرتجـف عمر وتنطلق جوارحـه بالحمد والثنـاء، وعيناه تتلألأ فيهمـا دمعتا فـرح وسعادة، دمعتا شكـر ورضا، دمعتا إيمـان وخشوع، ويـدق الجرس فيندفع الأطفـال النجبـاء، ويخرجـون مهرولين لزرع البشرى والبسمات في البيوت، وينهض الكسالى!! أما هو فيظل جالسًا، وفي عينيه بريق، وعلى لسانه ألف كلمة، حتى إذا انتهت الضوضاء قام من مكانه يحمل المحفظة بيد والدفتر بالأخرى، نادته المعلمة؛ لتسأله إذا كان يريد أكثر من هذا؟! فقال لها:

إنه كان يريد رتبة أعلى من هذه!

تعجبت المعلمة ثم ابتسمت، وهي لا تدري ما يدور في عقله الصغير من أفكار، وظنت أنه مريض!

خرج والبسمـة والعبوس يتصارعان في وجهـه، وما كاد يرى أخته تعلـو وجهها مسحة من الفرح حتى انفرجت شفتـاه عن بسمة صغيرة، ولكنهـا كانت نابعة من الأعماق، كانت الأولـى وكانت الفرحة قد ولدت فـي الفـؤاد، وزرعـت على وجهها نـورًا لا يكـون إلا في الوجـوه البريئة السعيـدة، وكان الأول وكان فرحًـا، ولكن فرحته ظلت جنينًا تطفو حينًا فترتسـم على ملامح وجهه، ثم تختفي خلف ستائـر الأفكار الغامضة. وعادا مساء إلى قسميهما وعمر كعادته حالم تائه شارد ثم خرجا.

كان الطفل وأخته يمشيان في الطريق مسرعين لإبلاغ هذه الفرحة إلـى الوالدين في قريتهما البعيدة، وإلى الإخوة الذين ينتظرون النتائج

بفـــارغ الصبر، وكان الظلام قد خيم على الوجود، المهم أنهما يعرفان الطريـــق برغم الظـــلام، يعرفانها منـــذ أربع سنوات حتـــى في الظلام ببصيرتهمـــا. كان يقبض بأصابعه الصغيرة على دفتره الصغير بشدة، وكأنه خائف من يد غريبة تختطفه منه، وكانت أخته تقول له:

الأول، ولا تفرح؟! فيجيبها:

أنا فرح، وإن فرحتي لا تزال صغيرة، وأنا أنتظر فرحة أكثر من هذه بنتائج أسمى من هذه!!

فتتعجـــب وتبتســـم هـــي الأخـــرى؛ لأن فرحتهـــا تدفعهـــا دومًـــا إلى البسمـــة. وصلا الطريـــق.. جرى عمر مسرعًا، حاولـــت أخته أن تمسك بيديـــه فانزلق من قبضتها كالسمكة الصغيـــرة، وإذا بصرخة دوت في الأسمـــاع، وإذا بصوت يملأ الفضاء، ولدته حنجـــرة الطفل الصغيرة، احتكت عجلات السيارة بالأرض وانطلق السائق بالشتائم!!

جـــرت الطفلة إلـــى أهلها؛ لتبلغهم بموت الفرحة فـــي فؤادها وفؤاد أخيهـــا، كانت تجـــري والغبار يملأ قدميها اللتيـــن تمردتا على الحذاء، يتطاير الغبار على شعرها ومحفظتها فيلوثها، ويجتازها عبر المسامات إلى دفتر الرتب. الطفلة تجري وكلاب القرى التي تمر بها تجري وتنبح تريـــد أن تفتك بهـــا، لكنها لم تبال بها!!. وصلـــت البيت تلهث، ووضعت هذا المولود الميت بين يـــدي والديها وإخوتها فغدت إشراقات عيونهم بالأمل سرابًا وظلامًا!

جرى الأب والإخوة إلى الطريق، فلم يجدوا شيئًا غير حبات الحلوى والمحفظة.. محفظة عمر الصغيرة الهدية.. كان عمر في المستشفى،

ملقًى على السرير يحمل دفتره الملطخ بالدماء، والبسمة تعلو شفتيه، والدماء تقطر برغم الضمادة من جبينه، ولكنها كانت بسمة غريبة، عذبة برؤية الأفئدة التي خاضت الفيافي؛ لتراه.. البسمة تولد من شفتيه، ومسحة من نور تغمر وجهه، ولكنه ما كاد يفتح فمه ليفضي إلى والده بكلمة السر.. حتى خرجت السعادة من فؤاده، فماتت كما تموت كل فرحة.

اللوز المر

قطـرات الماء تنهال عليه بقوة، وهو يمشي على غير هدى.. يمشي والطريـق يمتـد معه إلـى اللانهاية، يمشـي بلا مبـالاة، ولكن قطرات المطـر هذه المرة ازدادت غضبًا، فسقطت على رأسه كالحصى. مشى مهـرولاً إلى حيث لا يدري لكن لا فائدة، فالمطـر لم يجد شيئًا يمارس عليـه لعبة العنف غير هذا الرأس، والطريق يمتد تراءت له بقايا منزل متهدم، إنه القصر الذي قضى فيه ورفاقه أيامًا، واختفوا فيه منذ أمد بعيد من المطر، وها هو ذا الآن تقوده قدماه إليه من جديد..

أحـس بألـم شديـد مـن وقع المطـر وبرودتـه، ولكنه ظـل يجري مادامـت غايته تحددت، وأصبح المنزل المتهدم هدفه المنشود، وصل إليـه فوجده مثلمـا كان.. لم يتغير فيه شيء سـوى بعض الجدران التي كانـت قائمة فهوت من صـروف الزمان، وربما يسقط جـزء منها الآن أيضًا، وبعض الآثار لغرباء جدد لم يجدوا مأوى، ففتح لهم هذا المنزل المتهـدم ذراعيه، وإنه ليفتحهما لكل مقبل عليه؛ عله يؤنسه في وحدته الموحشـة، وغربته المميتـة، وهاهو ذا قد فتح ذراعيـه لهذا الفار من المطر، ومن البشر.. المطرود من المكان والزمان.

جلس على ترابه الطاهر الذي حركته أقدام الطفولة.. وراح يفكر، ويسأل القصر:

كم من زائر يا ترى دفعته الأيام لأن يأوي إليك أيها القصر؟.. كم من غريب احتضنته وآنسته؟ وكم من مطرود أسكنته بين جوانحك؟ وها أنت الآن تحتضن مطرودًا جديدًا تروي قصته لمن سيأتي بعده!

أسئلة كثيرة لم يكن ينتظر جوابًا عليها، فقد كان صرير الرياح يجيبه. عيناه فاضتا، والبرودة تشتد شيئًا فشيئًا، وثيابه المبللة وشعره يجعلانه يشعر بالبرودة أكثر، بل إن البرودة غزت قلبه التائه الحائر، بالأمس فقط وهو يحتمي بالبيت الدافئ من قرّ الشتاء، الجدران والحرارة والأغطية والقلوب الدافئة التي تمده بالحرارة، واليوم شريد بين هذه الأطلال المهجورة.. السماء غاضبة، ودمدمات الرعد تدوي في أرجائها، ويتساقط البرد وتغزو حباته هذا الركن الوحيد الذي لا يزال محافظاً على سقفه.

يبتعد أحمد حتى يلتصق بالجدران تاركاً حبات البرد تشاركه وحدته وآلامه، كم تمنى ألا تذوب، كم تمنى أن ينام وهي تحيط به من جميع الجهات تطوقه وتقتل غربته، ولكنها أبت إلا أن تبكي لبكاء قلبه الدامي الجريح، فراحت تذرف دموعها مواساة لهذا التائه الغريب، ولا تلبث أن تذوب دموعها في التراب وتموت، فيبكي لها ولهمومه.

وأقبل الليل مسرعًا.. أقبل الليل بكابوسه الأسود الثقيل وحط على كاهل أحمد الذي راح يسترد الذكريات، هذا المكان كان في يوم من الأيام عزيزًا، كان عامرًا بالحياة، أما اليوم فقد دالت عليه الأيام،

وتناوبت عليه صروف الزمان، وتعاقبت عليه الأجيال، ربما انتهى ساكنوه، فتركوه ذكرى وعبرة، بل مأوى لكل غريب!!.

لا.. أبدًا، لقد هجره أهله، رحلوا عنه وتركوه وحيدًا؛ ليضم كل من تركه أهله وحيدًا، ليحتضن كل محروم اقتحمت الآلام والذكريات ذهنه، فراح يناجيه:

- أنا مثلك أيها القصر! لي والدان، ولي إخوة، ولي أهل. طردني والدي كما هجرك أنت صاحبك إلى الأبد.. أيتها الأطلال! أنت الغريبة الوحيدة، وأنا الغريب الوحيد، فضميني إليك.. احضنيني.. اقتلي وحدتي وغربتي.. وسأكون لك الصديق الوفي، والمؤنس في ليالي الشتاء الطويلة المطيرة المظلمة.. نجلس.. أحكي لك قصتي وذكرياتي، وأروي لك ماضي القريب، وأستمع إليك؛ لتروي لي قصتك الممتدة عبر الأجيال!!..

الظلام يشتد، وأحمد يحاول أن ينسى كل شيء، وأن يذوب فيه ويتفاعل مع أطلاله غير أن الكلمات ظلت تحطم كل محاولة:

- اخرج من هنا، ولا تعد إلى البيت.. إن كنت رجلاً فلا تعد.. كما كونت هذا البيت بنفسي، فكن رجلاً وكون بيتك بنفسك.. كما كنت يتيمًا فكن أنت يتيمًا، ولكن كن رجلاً.. اخرج وكن رجلاً.. إذا كنت رجلاً فلا تعد.. كن.. ر.. ج.. لاً..!!

رجل؟! الرجل لا يبكي وأنا أذرف الدموع.. لا.. لن أبكي.. سأكون رجلاً يا من ليس له قلب أب.. سأكون رجلاً..!!

اختلط الكلام شبه المكتوم بالبكاء، فمد يديه وسط الظلام، ومسح عينيه بكمه المبلل.. وراح يفكر في جراحاته وآلامه وآلام هذا المنزل المتهدم.. ما هذا بالألم.. إنها الحياة.. الحياة بأتمّ معنى الكلمة، لا أحد يستطيع أن يقف أمامه الآن ليقول له:

إنك مهيض الجناح، مكلوم الجوى. لا أحد يستطيع أن يقول له:

إن السعادة أن تشعر بالبرد والحر، أن تجد كل شيء تريده جاهزًا دائمًا!!

لو كانت الدنيا بيديه لأعدم كل من ظن السعادة هكذا.. وراح يرد على أولئك المفتونين بالسعادة ويخاطب الليل والأطلال.

- السعادة!.. السعادة أن تكون محرومًا من شيء تسعى وتجد في طلبه.. أن تفقد شيئًا ما وتسترده لا بقوتك فحسب، ولكن بلسانك وبروحك.. أن تجرح ألف مرة، وبعد كل جرح تبتسم. لن تبتسم السماء ولن تكون سعيدة إلا بعد بكاء مرير، وبعد غضب شديد.. السماء تبكي شهورًا، وتغطيها السحب شهورًا، وتنطلق من أحشائها الرعود المدوية لتبتسم أيامًا، وتضحك أخرى.. والأرض تسعد، ولكن بعد ماذا؟ بعد ألف جرح وجرح.. بعد أن تجرح وتضمد الأيام جراحاتها، ثم تصب عليها السماء جام غضبها؛ لتتمخض كل هذه الآلام عن مولود جديد تظل ترعاه إلى أن يصير البرعم أزهارًا وحقولاً، فتبتسم ناسية جراحاتها التي اندملت، وناسية يوم تأتي فيه الحاصدات والمناجل لتقطع رأس كل مولود.. وحتى الذي تغفله الحاصدات، فإن الصيف ورياح الخريف لن تسمح بالحياة أكثر..

من ذا الذي يجدني قابعًا في هذا المكان فيظن أن لي أبًا؟! إن الذي يجدني هنا يعرف أنني يتيم الوالدين، عديم الأهل مهجور.. أبي.. كلمة كنت أحب أن ألفظها، أما اليوم فقلبي مملوء ندامة لطول ما رددتها.. أبي.. لا.. منذ متى كان لي أب؟!

وتغلبه الدموع، وهو يناجي التمثال البعيد؛ علّه يسمع نداءه في سكون الليل الرهيب وصمت السماء.. دموعه تنهمر بغزارة، فيقف أحمد في عراك شديد مع نفسه الضعيفة:

- الرجل لا يبكي، وأنا أبكي.. لو لم أكن رجلاً ما بقيت دقيقة هنا وحيدًا في الظلام والأطلال والشتاء!!

ويمضي في عراك شديد مع نفسه.. برغم عنفه وبرغم قسوته يحبه، وسيظل يحبه:

- والدي هو رحمك أيها القصر المتهدم، فأرسلني لإشاركك وحدتك وغربتك.. والدي هو الذي سمعك الليالي الطوال تشتكي، فأنا الآن أزورك، وأكفكف دموعي بين أحضانك، وأرثي عزك الزائل وماضيك التليد!!

مناجاة طويلة قضاها أحمد بين الليل والأطلال راجيًا إياها أن تنقل همساته التي وضعها بين يديها إلى والده:

- أتعلم يا قصر، لماذا طردني والدي.. طردني لأنه علمني الفشل والرسوب، فلما رسبت طردني، علمني الفشل في كل شيء بانقباضاته الزائدة عن الحد! وانبساطاته الزائدة عن الحد! علمني الفشل، ولما

فشلت طردني كما طرد أخي الأكبر، وعاد بعد أن كاد فؤاد والدتي يحترق لغيابه، وكدنا نفقد الأمل في عودته، تذكر يوم سأل والده عن سليم فرد عليه ببرودة تامة وثبات: سيعود أخوك غدًا، سيعود سليم رجلاً، وإلا فستضع أمك غدًا سليمًا جديدًا لا يخفق. وظلت والدته المسكينة تبكي الليالي الطوال، وتناجي سليمًا فيجلس أحمد إلى جانبها والناس نيام يواسيها، ويمسح عبراتها المنسكبة، ولكنه لا يلبث إلا قليلاً حتى تسيل عيناه بالدموع فتحتضنه، وتضع رأسه الصغير على ركبتها فينام ويتركها في مناجاتها وبكائها. وفي الصباح يجد نفسه في مكانه، ويجد والدته تطلق زفراتها الحارة بين الحين والآخر.. وعاد سليم فأنجبت عودته ألف فرحة في البيت، عاد سليم رجلاً يحمل الشهادة بيد ورزانة الرجال بالأخرى.

هل سأعود من منفاي سليمًا، هل سأصل الشاطئ؟! شاطئ بيتنا سليمًا، وأدخل صحراء قلب أهلي الواسعة سالمًا مثلما عاد سليم، وأزرع الفرحة في قلب والدي بنجاح الفكرة.. هل أعود إليه رجلاً؟ ليتني أستطيع أن أثبت له أنني رجل..!

وضع رأسه الصغير المفعم بالأفكار الكبيرة بين يديه وغالبته الدموع فغلبته، وراح يشتكي للقصر همًّا زاره، وألمًا كبيرًا، إلا أن صمت القصر وهدوءه يقولان له:

– إن ألم هذه الأطلال المتهدمة أكبر من آلامه، وهموم القصر المتواليات عبر الزمن أكثر من همومه، عندما يجد من يتألم يخفف عنه الألم، وينسى محنته الكبيرة، ويبوح للقصر بسعادته؛ لأنه رآه يتألم،

ولأن عينيه فاضتا بالدموع؛ أسفًا على ماضي القصر.. الدموع هي النور الذي ستضاء به الدروب.. عز الرجولة نحو العظمة.. ونحو السعادة.

اجتاح قلبه الصغير ألم كبير، وملأ نفسه الصغيرة أرق المشاعر، وتذكر شجرته التي غرس بذرتها بيديه يوم كان طفلاً صغيرًا، ويوم كان عائدًا مع والدته من المدينة، فإذا ببريق عينيه يجتاز غبار الصيف الملتف حول شيء ما توقف معه والده؛ لينظر ما اكتشفته عيناه.. كانت بذرة، كانت حبة لوز.. راح الطفل فرحًا ببذرته.. والتف حوله إخوته ليتقاسموها.. أو ليجود بها على أحدهم، ولكنه أبى إلا أن يغرسها، غرس أحمد البذرة والفرح يغمره، وكل صباح يفتح فيه عينيه يحمل إناء ماء يسقي به البذرة. وكانت الأحلام تملأ مخيلته، ويتمنى أن يستيقظ ليجد برعمًا صغيرًا قد مزق غشاء الأرض، وخرج إلى الوجود.

وذات يوم خرج أحمد ليتوضأ، وإذا بمولود جديد قد انفجر.. قد خرج إلى الوجود.. فكانت سعادته كبيرة، وظل يروي البرعم الأخضر الصغير من حين إلى حين، وكل صباح يجده قد ارتفع قليلاً، وأحمد يكبر، والبرعم يرتفع ويكبر، والأهل فرحون.. سموها شجرة أحمد، وأحمد يبتسم كلما سمع هذه الكلمة العذبة ويفرح؛ لأنه استطاع أن يكبح جماح نفسه وهو طفل صغير لا يعرف معنى أن يزرع المرء بذرة، لتكون برعمًا ينمو، حتى يكبر، ثم تصير شجرة!!.

وذات ربيع أورقت الشجرة، وأزهرت وخرج أحمد صباحًا ليجدها قد أنجبت.. الحب يزداد كل يوم ويكبر، وأحمد يرفع راحتيه إلى السماء في كل صلاة، وطرد سليم من البيت وازدادت خطايا أحمد التي ربما ستقوده إلى الطرد.

وعاد سليم إلى البيت وأخذت أخطاء أحمد تكبر وتكبر وحبات اللوز تكبر.. وحان وقت القطاف، فكان اللوز ولكنه مر، ضحك الجميع من أحمد ومن تعبه الشديد في سقي الشجرة.. وآماله الكبيرة الضائعة، ولم يعد أحد يسميها شجرة أحمد وإنما شجرة اللوز المر، أو الشجرة المرة أحيانًا!!

بكى أحمد كثيرًا وعاد إلى الصلاة بعد أن تركها حينًا، وألقى بشكواه بين يدي الرحمن.. بكى إذ لم تعد له شجرة كما تمنى، وإنما أصبح عنده لوز مر، وأخفق أحمد في دراسته وطرد من المدرسة، وجاء دوره ليطرد هو الآخر مادامت الفكرة قد نجحت مع سليم، فأحمد أقوى وسيعود رجلاً بأتمّ معنى الكلمة.

مضى أثر من الثلث الأول من الليل، وأحمد سابح في بحر أحلامه يشتكي إلى القصر، ويخفف عنه آلامه الكبيرة القديمة، ويشاطره الهمّ الذي ألقت به الأيام على كاهله، فتهدمت بعض أركانه وتصدع بعضها الآخر، فظل قائمًا يطاول عنان السماء، ويفتح ذراعيه لأمثاله من السائرين إلى الأمل، وبرغم الشوق إلى مرافئ البحر الدافئ.

هدأت الرعود، ونام القصر، وناحت حمائمه، أمسكت السماء خيطها، وراح أحمد يفكر، ويسأل نفسه:

هل سأعود رجلاً ومتى؟..

ظن أنه لن يعود إلى والده إلا بعد تجربة الحياة. ولن يعود إليه إلا وهو شيخ طاعن في السن حينها قد يجده، وقد يسأل الناس عن قبره؛ ليقف عنده ويثبت له رجولته، لكنه لا يستطيع العودة وشجرة اللوز المر

قائمة قد تضطرهم ثلوج الشتاء لاجتثاثها، وقد يذهب في يوم من الأيام ويجدها لا تزال قائمة بأزهارها البيضاء ولوزها المر.

مـا أجملها من شجـرة! ما أشد مرارة لوزها! ليتهـا لم تثمر! ليتها كانت للظل والتأمل! لا للوز، ولا للمرارة..!

غـزت الأفـكار ذهنه، وحركه نـوح الحمائم بالقصـر، فمشى وفي نفسـه ألف بـركان، مشى ونوره الظلام، وسلاحـه التحدي.. مشى إلى القرية؛ ليوقظ والده في الثلث الأخير من الليل، ويقوده من يده والنعاس يغالبه ويقول له: انظر.. ها قد صرت رجلاً!!.

مشـى مسرعًـا والطريق غير المتناهـي بالأمس يبدو لـه قصيرًا، فشعلة قلبه أنسته وحل الأرض، وأنسته برودة الشتاء، ولاحت له القرية من بعيد.. غمـرت أحمد فرحة كبرى بوصوله إلى القرية والناس نيام، لا شـيء يسمع غير نباح الكلاب، وحتى الـكلاب سكتت؛ لما أحسته في نفسه من تحدٍّ!!

دخل أحمد الحديقة الصغيرة وهوى على شجرة اللوز المر بفأسه، وراح يضربها ضربـات قاسية.. وما هي إلا لحظات حتى هوت الشجرة إلـى الأرض. نظر أحمد إليها تحت ضوء الفجر الضئيل، فدمعت عيناه لعـزة هذه الشجـرة، ولكنـه جففهما، فالرجـل لا يبكي علـى الماضي المرير، يحـب ماضيه ويحبه أكثر إذا كان مريـرًا كلوز هذه الشجرة.. تركهـا جثـة هامـدة على الأرض والفأس نائـم فوقها.. مشـى وقلبه مطمئـن؛ لأنه سيعود يومًا ما إلـى هذه القرية عندما يصبح رجلاً. ودع الشجرة المـرة للبحث عن حبة لوز حلوة تنبثق عنها شجرة تنجب لوزًا حلوًا، وتكون شجرة أحمد بحق، لا شجرة اللوز المر.

مشـــى بخطواته العريضة الواسعة حتى اختفى عن القرية الحبيبة، ولمــا أشرقــت شمس الصبــاح خرج الإخــوة ليجدوا الشجــرة طريحة الأرض، فطاروا إلى والدهم يخبرونه بتقطع هذا الخيط الذي يربطهم بأحمد.

انفرجــت شفتــا والدهم عن بسمة كبيرة لــم يعهدوها، وعلا النور وجهه.. الإخوة يبكون والأب يبتسم، ويؤكد لهم أنه سيعود قريبًا.

ريفية..!

هبت الريح وتراقصت ألسنة النار، اللهب يمتد إلى راحتيها المبسوطتين للقبض على السعادة، فيلفحهما ويلفح كل شيء فيها، وعيناها تلمعان وتطلبان المزيد، عينان بارقتان تتلألأ فيهما الدموع، دموع الحرمان، دموع التعطش للسعادة.

لماذا الحزن أختاه، لماذا الدموع؟ ماذا تريدين بالله عليك؟ لقد كنت سعيدة في يوم من الأيام، ولقد كنت طروبًا يوم كنت تبتسمين، ويوم كنت ترين النار تضحك قانعة بما في حوزتها، ولا يمتد لهيبها لما حولها، أما اليوم فقد أصبحت ترينها تبكي!...

لماذا جمدت الشفتان – أختاه – والعينان، ولماذا سكنت الحركات؟ ربما لتجهم السماء!.. حقًّا إنها كئيبة، ولكن الشمس لا تزال حية تحت طيات السحاب، تظهر حينًا وتختفي حينًا آخر، أما أنت فلا شيء فيك قد عاد، لا البسمة، ولا النظرة، ولا الكلمة، ولا الحركة.. أدركي نفسك يا أختاه، اللهب يمتد بكل نهم إلى فستانك الجميل النائم على ركبتيك

المسدل حتى أخمص قدميك، أيقظيــه واستيقظي، النار تمتد حولك، تبكــي لتجودي عليــه بقليل من الثــوب اليوم، وغدًا بمــا دون الركبتين، وبعد غد بما فوق الركبتين، وهكذا حتى تتركك عارية. النار تبكي وأنت تضحكيــن، تحاولين استرجــاع البسمة القديمــة، فتصدرين ضحكات صاخبــة مدوية، ضحكات مموهــة. ولماذا هذه الضحــكات؟ ألأنها لبّ السعادة؟.. قد تكون.. فالسعداء من حولك هكذا يضحكون!...

جــاءت إلــى المدينة بأفكارها القديمــة.. بحياتها القديمــة، فرأت ما لــم تكــن قد رأته من قبل، النــاســ هنا غرباء، عجبًــا!! الناس هنا يدوسون المشاعــر.. رأت في المدينــة التكلف، ورأت فيها ما لم تكــن تتمنى رؤيته، كانــت في أيامها الأولى تحاول الحفاظ على ما ورثته من ريفها البعيد، من حقوله وروابيه.. من سهوله الممتدة وشعابه الملتوية، ومن جباله الصامدة، وكانــت تقبض على عاداتها بعناء مع هؤلاء، فهــم يرفضون كل شيء فيها؛ لأن كل شيء فيها يذكرهم بماضيهم الذي أسلموه عالم النسيان.

بدؤوها باللباس فراحت تطوره شيئًا فشيئًا حتى أسلمته للنار الباكية، للنار التي لا تريد إلا المزيد، وأصبحت أثوابهم أثوابها، وأصبح ما تحت الثــوب لهم أيضًا، فهم يملكون جوارحهــا ويوجهونها حيثما شاؤوا.. ثم ماذا؟.. أفــكارك.. وما لهم ولها؟! أولم يكفهــم الثوب؟.. ولم تعجبهم الأفكار القديمة. قالوا لها:

- إنها أفكار العصر الحجري.

فبكت وقاومت، ولكنهــم أقنعوها في النهاية..إذا كانت السعادة لا تتحقــق إلا بالثوب، فلمــاذا لا تتحقق بالضحكة الصاخبــة.. لا البسمة

الريفيـة الهادئـة الحالمـة، ونسيت بسمتهـا البريئة، ونسيـت نظرتها الحيـة، فراحـت عيناها تلتهمان كل مـا تقع عليه، وفقدتـا صفاءهما، الظمأ يقودهما إلى أي مكان تظن أن فيه سعادة من سعادة هؤلاء.

ملـؤوا حياتهـا بسعادتهـم، فراحـت تبكـي عمرها الضائـع، تبكي ماضيها الريفي الذي لم تذق فيه لذة السعادة، ولكنهم أقنعوها:

- إذا فاتـك هـذا، فالحياة تفتح لك ذراعيهـا الآن، الأمل أمامك، متعي نفسك لا تضيعي أي فرصة تحقق لك السعادة!.

مشيتها وحياتها.. أفكارها كل شيء فيها قد تغير: هكذا ريفية أنت! يـا ريفيـة، استيقظي! مهما جئت مـن مدينتك الصغيـرة، ومهما كنت تدعيـن أنك مدنيـة.. فريفية أنت!! إن لم تكوني ريفيـة المولد والنشأة فأنت ريفية بالوراثة، أمك ريفية وأبوك ريفي، وإن لم يكن هذان ريفيين فجدك ريفي!!

أفيقي أيتها الريفية، أفيقي.. وإلا امتدت النار إلى قلبك الذي لم يفقد طيبته بعد، قاومي لا تستسلمـي إنك ريفية والريفي لا يعرف الاستسلام، تحدي.. لماذا تقبلت مشروعاتهم الزائفة؟! ما هكذا السعادة أختاه! متى عرفـت السعادة في الثوب ومتى عرفتها في المظهر، متى عرفت السعادة في الضحك، مادمت في عالم المدينة فابحثي عنها بين أحضان القصور؛ علـك تجدينها، ولكن ثقي أنك لن تجديها إلا في أكواخ ريفية، ثم إنك لن تجديها، حيث الزيف وحيث الخداع وحيث النهم.

استبدلـت بعادتهـا القديمـة عادات جديـدة، وبأفكارهـا الأصيلة أفـكارًا حديثة، وبثيابها المحتشمة أثوابـاً فاضحة، وبحركاتها الرزينة

حـركات مريبـة!! نسيـت مسقط رأسهـا، واستبدلـت بإخوانهـا رفاقًا جددًا، وبأحبائها أصدقاء جددًا. ما أحلى الأخوة! وما أجمل أن يكتسب الإنسـان أصدقاء جـددًا!! ولكن إذا كان هؤلاء يظهـرون لك الصداقة لتكونـي الضحيـة، فليـت استبدالها وقف عنـد هذا الحـد. لقد أحبت المدينـة ونسيت أرضًا ولدت ونشأت فيها، أحبت المدينة ولم تعد تريد مغادرتهـا، ونسيت أن لها أهـلاً عليها أن تزورهم، وليسـوا ككل أهل.. إنهما الوالدان!..

علموها الادعاء فراحت تدعي أن الجامعة شغلتها عن الأحبة، حبذا لو كانت الجامعة وليس من في الجامعة! حبذا لو كانت الجامعة هي التي شغلتها عن رؤية الوالدين وليس ما في الجامعة من إغراءات!..

ادعـاءات أقنعت بها والديهـا اللذين أوصلاها إلـى الجامعة بشق الأنفس. أبلاهمـا السهر والعنـاء فهز الوالـد هزة عنيفـة دفعته إلى المدينـة، وجـاء للبحث عـن وحيدته.. دخـل المدينة الزاهيـة وكانت ابنته تشارك المدينة وأصحابها زهوهم وسعادتهم، وفجأة علا وجهها سـواد داكـن، أخرسـت ضحكتها التـي تلاشـى نصفها فـي الفضاء، وتعجبت الصديقات لهذا التغيير المفاجئ الذي طرأ على من أصبحت نديمـة لهن، ومحققـة لسعادتهن الكبـرى، فرحن يتساءلـن عن سبب اضطرابها؟

«لا تحاولي سيعرف كل شيء، إنك على علم بأنهم سيعرفون الحقيقة، مادام جريئًا فسيفضح حقيقة حاولت إخفاءها أشهرًا». أرادت أن تتكلم فتلعثـم اللسـان، ولكنهم علموها حتى الخيانة، خيانـة الأمانة العظمى،

حتى نكران الجميل، وخانت برغم ذلك الصوت الخافت الذي يأتيها من الأعمـاق، فتحت فمها وقلبها ينبض، ودقاته ترتفع.. تكاد تسمع، نظرت إلـى ذلك الذي يرمقها بنظرات حائرة، ذلك الذي يسألها بعينيه اللتين تعود أن يسألها بهما فتفهم ما يريد قوله.

نظرت إليـه، وقالت: أترون ذلك الرجل الذي يقف هناك؟ فراحت إحداهـن تنظر إلـى صاحب النظارات الجميلـة، والأخرى إلى صاحب البذلـة الأنيقة، والأخرى إلى صاحب القد المياس، ولكنها حولتهن من عالمهن الحالم.. قالت لهن: أترون ذلك الرجل الكهل، الرث الملابس، صاحـب الشاش الممزق؟ فنظـرن إليه بدهشة واستغـراب!! طمأنتهن وقلبهـا يتمزق.. إنه.. إنه خادمنا، وأخشـى أن يأتيني بخبر محزن عن والدي!..

خادمهم، يا للأسف!! حقًّا خادمها، خادمها الذي أوصلها الجامعة، الذي حرم نفسه لذة النوم، وحرم نفسه ثوبًا يضعه على جنبيه!..

مشت إليـه خطوتين.. ومشى نحوها مهـرولاً؛ ليطفئ لهيب الشوق الـذي أحرق قلبه أيامًـا، ويخمد نار الغيظ من هـذا التغيير المفاجئ، والصديقـات يتابعنها بنظراتهن الحادة، ويسألن عن سبب اضطرابها وارتباكها غير المعهودين، مشت ومشى، فإذا بهما يقفان وجهًا لوجه، هو عالي الرأس مرفوع الجبين وهي مطأطأة الرأس ذابلة العينين، القلبان يخفقـان.. يكاد كل منهما يسمـع صوت الآخر، فتح ذراعيه لترتمي بين أحضانه مثلما كانت، ولكن يديها ظلتا في جيب ثوب صديقتها العصري كمـا يقولـون، حاولت أن تقبلـه ببرودة مـادام خادمها، ولكنـه أبى إلا

احتضانهـا احتضــان الأب لابنته بشوق وحنــان، وقبلها بحرارة عاطفة الأبوة.. أما هي.. فلتفعل ما شاءت!!

الصديقات ينظرن..كيف تسمــح لنفسها بالدنو من ذلك المخلوق البشــري، وكيــف تسمح لــه بتقبيلها؟! وقــف والكلمات تتعــارك لتخرج فتدوي في هاتيــن الأذنين اللتين عودهما الهمس، ولكن حنجرته كانت تدفن بين طياتها القنبلة تلو الأخرى، فبقي واقفًا لا ينبس بكلمة، وبقيت هي كذلك يملؤها الرعب من هذا الموقف الرهيب تنتظر إشارة منه.

حاولــت القضــاء علــى هــذا الصمت الرهيــب الذي ألقــى بكاهله عليهما، ورأت أن تسأله عن والدتها العليلة؛ علها تقتل الغيظ الذي يملأ نفســه، فــراح يجيبها وكأن شيئًا لم يكن بكل بساطــة ووداعة، فوالدتها قــد شفيت، وعادت كعادتها إلــى أعمالها الشاقة، ثــم راح يحدثها عن البقرة التــي أحبتها حبًّا جمًّا والتي وضعت مولــودة جديدة، وهو يتكلم كانت ترفع بين الحين والآخر إليه عينيها فلا ترى فيهما غير الطمأنينة القديمــة، غيــر القناعة الكبرى بمــا منّ الله عليه، بل إنهــا كانت تلمح فيهمــا نورًا وصفــاء لا يولد إلا من نفس سعيــدة كنفسه.. والوالد يتكلم ببراءتــه الريفيــة كانت الحيــرة تملأ نفسهــا، إذ كيف تسمــح لنفسها بالوقــوف أمــام هذا الرجــل الوفي السعيــد، وهي الخائنــة لمبادئها.. لأفكارهــا.. لعاداتها.. وله أيضًا؟! وراحت تطرح على نفسها ألف سؤال وسؤال.. من تكون هذه الغريبة التي تقف أمامك أيها الريفي؟! هل حقًّا تعرفها؟ أبدًا إن ابنتك قتلوها، وها هم قد أعطوك بدلها هذه المزيفة، جئــت إلى وحيدتك، ولكنها ماتت، وها هم قاتلوها يرقبونك من بعيد.. يتعجبون من وقوفها أمامك، بل من قبولك الوقوف أمامها!!

لم تعد تسمع كلماته الهادئة، لم تعد تفهم شيئًا مما يقوله، فماضيها القريب عاد بمخيلتها ليزاحم هذا الحاضر الذي أقنعوها به، ثم كانت حيـة، وكم كانـت جميلـة! بالأمس فقط وقبـل مجيئهـا للجامعة كانت تخجل أن ترسـل شـعرها أمام والدها، والآن تقف أمامه والشعر مسدل تتلاعب به النسمات، وبالأمس فقط كانت تخجل أن تضع الكحل أمامه، وها هي الآن واقفة أمامه، وقد غطت الأصباغ وجهها وحقيقتها.. تمنت لو ماتت قبل أن تصل إلى هذا المكان، تمنت لو أنها لم تولد.. لو أنها لم تـأتِ إلى الجامعة.. ولكن والدها ليقتل حيرتها هز يده وراح يربت على شعرهـا.. وبينما هما كذلك أقبلت الصديقات يسألن، نادينها فالتفتت إليهن بخجلها الريفي وحيائها الريفي والأصباغ تذوب وتحاول الهروب من ذلك الوجه الريفـي الذي أعلن ثورته.. عجبًا لقد قتلنا خجلها منذ أن أسلمنا لباسها الريفي للنار!..

كلا، لقـد خدرتموه، وإنه لن ينـام إلا ليستيقظ!! واستيقظ الخجل مـن أعماقهـا، فاستـدارت إلى والدهـا وعيناها مغرورقتـان بالدموع، نظـرت إليـه لتعتذر عن خطئها الفظيع الذي لا يغفـره إلا والد، فإذا به قد فهمها! تعود أن يفهم ما تريده بنظراتها الصادقة التي عادت إليها، ولم تكن لتعود لـولا فضل الله، ثم والدها!.. مدّ يده إلى الأرض وناولها كيسًـا.. !!، وعاد إليها فاحتضنها وهو يبلغها شوق والدتها الحار، ويبث فيها حبه وحنينه.. ثم نظر إليها قائلاً:

- أو تدرين ما به؟ فأومأت: أن لا.

قال لها: فيه لباس ريفي، رآها في حلم، وقد أضاعت لباسها، فأبى إلا أن يأتيها بلباسها الريفي!

والصديقات ينظرن، وهــي تلبسه وتبتسم بسمتها القديمة. أكدت لوالدهــا، وعدته وعد الابنة البارة أنهــا ستعود مثلما كانت. حينها نظر الوالــد إلى صديقاتها، وقال لهن: أو تدرين؟ إنهــا ريفية.. ابنة ريفي.. ابــن ريفي، وستبقى ريفية برغم أنفكن.. ثم استدار إليها، قائلاً: ريفية أنت وستظلين ريفية..!!.

تعلمي وضع النقط...

وردة بيضـاء تفتحـت وسط صحـراء.. مدت جذورهـا إلى أعماق الرمـال، ومـدت عنقهـا لترسل شذاها إلـى الشمس، غيـر أن الشمس ودعـت طبيعتهـا التي فطـرت عليها! هل حقًّـا إنك شمـس صحراء؟.. أبدًا.. والله!.

تعجبـي، استفهمـي، قولي ما شئـت، ولا تنسي مـرة أنك كنت مثل هـذه الوردة البيضاء التي تبحث عمن تجـود عليه بعبقها.. تذكري يوم تربعت فوق أرض جدباء مثلما تربعت تلك الوردة، ومثلما تربعت الشمس وسط صحيفـة زرقاء تتخللها السحب، فكان وجهـك شاحبًا مثلما كان وجهها!..

جلست تحلمين بالربيع، وكاد الانهيار يقضي عليك لولا هذه الوردة التـي قاومـت كل شيء حتـى الرمال، ما أجمـل أخذ العبـر من ممثلي التحدي!! أغراك تحديها ونسيت أنها نامت إلى الأبد لما غابت الشمس عنها.. لا بأس.. المهم أنك كنت حينها تتمنين ربيعًا كالذي كان بقلبك

بالأمس فقط.. وتحلمين بشمس ربيعية وأرض تلبس حلة زاهرة، ونسيت أنه الخريف...

كنت حقًّا ربيعًا، وكانت الدنيا حواليك ربيعًا، ولكن هيهات، لقد فصلت بينك وبين الربيع برازخ وحواجز من حديد، وكان شوقك إلى ربيع ماضيك أشد من اشتياق الظمآن إلى الماء... تذكري كم كنت جميلة صديقتي! وكم كان شعرك جميلاً، خاصة تلك الضفيرتين السوداوين المسدلتين على كتفيك فتزدادين جمالاً!! آه.. دعيني.. دعيني أحترق وحدي.. لا تنبشي قبرًا دفنت فيه ذكرياتي..!

تقولينها.. تتأوهين.. تتنهدين.. لا.. لا تتنهدي، إنها طبيعة الصيف.. الصيف صديقتي الساذجة لا يحب إلا الصحارى المجدبة، حتى الأشواك يأبى تشبثها بالحياة صدقيني، كيف أبقاك هكذا؟!. تقولين: وماذا أبقى لك؟.. فعلاً نسيت، لقد أخذته الغيرة منك حتى امتص شبابك، نزع عنك خضرتك فصرت صحراء قاحلة.. كم نهيتك عن التأوه والبكاء!.. احتفظي بدموعك أختاه.. بتأوهاتك.. تنهداتك العميقة للربيع عندما ينجبه قلبك الباكي.. وهل تستطيعين القضاء على الابتسامة التي فطرت عليها قبل ولادتك وقبل حلول فصل الصيف؟

وهذه الأرض التي تفترشينها كانت البارحة ترتدي أحلى لباس، وكنت فوقها ترتدين أحلى لباس، كنت فوق بساطها، وكأنك تمتطين صهوة جواد عربي، وكنت تنظرين إلى بعيد، لست أدري إلى أين، فالحقول تمتد إلى ما لا نهاية، ونظرات عينك السوداوين الحالمتين تمتد معها إلى حيث تسير. جاءها الصيف فأعطت ما عليها، التهمتها

الحاصـدات، واستسلمت أنت وأعطيت ما عندك بـكل براءة، ما هكذا السخاء يا بريئة، يا طاهرة، ما هكذا العطاء يا سخية!.

أتقوليـن: لأنـك عربية؟ عربية حقًّـا، عيون غزلان، عيـون سوداء، وشعـر أسود طويل مسترسل، وبشرة سمـراء، عروس عربية كنت أنت، غزالـة عربيـة أصيلة، جميلـة، تشع العروبة من عينيـك.. ومن صوتك العذب المثير.. ولكنك تجاوزت حدود الكرام!.. فالضفيرتان بكتا حين بسطـت كفيك للعطاء ليقال عنـك سخية، ليقال عنك عربية من بناتها يجري الماء.. يجري الماء في العود..

أيهـون عليك أن تبقـي صفر اليدين؟.. بكى شعـرك المسدول يوم رآك تفقدين تحديك وصمودك، يوم أدرك أنك أضعف مخلوق على هذه البسيطة، يوم رآك ضعيفة أمام حرارة الكلمة الممزوجة بالعسل.. تجعد لما لامسته قطرات الندى.. والآن حل الخريف، غطاك.. بعثر أوراقك، أخـذ منـك كل شيء، فقـدت كل شيء مثلمـا تعرت هـذه الأشجار من أوراقهـا.. بهت جمالك، ذبل لونك مثلما ذبلت أشعة الشمس، تضاءلت أشعتك وسطا عليك النسيان مثلما سطا السحاب على أنوارها، وانطفأ نورك..

اسمحي لـي أن أتدخل قليلاً في بعض خصوصياتك التي فقدتها.. وأن أسألـك هذه الأسئلة المجردة مـن كل زيف: هل تتذكرين يوم كنت عربيـة خالصـة؟ أتذكرين يـوم كان لسانك عربيًّا؟ ويـوم كان جمالك عربيًّـا؟ وهل تتذكرين يوم كنت مؤمنة؟!. أنساك الربيع كل هذا، ولكنه ولى فتركك وحيدة، معدومة الوجود..

اكتنـزي الدمـوع، احتفظي بهـا فأوانها لم يئن بعـد.. سخية حتى بالدمـوع.. احتفظـي بها - رعـاك الله - لليلة ليـلاء، اختزنيها لفصل الشتـاء الذي هو مقبل عليك، الشتاء على الأبواب وأنا أعلم علم اليقين أنـك تنتظرينه بفـارغ الصبر؛ لتنامي فـوق بساطه الأبيضـ، وتذرفي معـه دموعًا حارة، كنت دائمًا يدفعـك التحدي إلى اللامعقول، تريدين بدموعك تلك إذابة الثلج وتحويله أنهارًا تغسلك مما علق بك من أوساخ أفقدتـك عفتك، وتريدين غسل طبقات الجليد التي تراكمت فوق قلبك وفوق الأرض؛ لتنجب ربيعًا.. وتنجبين الخزي والعار!..

ذلك اليوم القريب البعيد.. حزين هو لكنك سوف تفرحين بقدومه، بل إنـك تنتظرين قدومه بفارغ الصبر؛ لأنـك سوف تجدين حينها من يقف إلى جانبك، إن الشتاء سلوى مكلومي الجوى، الشتاء الذي يجعلك في غنى تام عمن اكتشفت بعد مصارحتهم أنهم رفضوك، ولن يقفوا إلى جانبك مهما عدلت سلوكك، ومهما حاولت استرجاع حقوقك المسلوبة، واستعادة عطاياك المفرطة.. وأنى لك ذلك؟! شتاء يواسيك، يشاطرك الهـم والنكد، ويبعث في نفسك الحماسـة على ذرف دموع حارة تلطف مـن حرارتك،.. إلا أنك صرت باردة، لم يعد شيء فيك يبعث الحرارة؛ لأنك فقدت حرارتك العربية، ولأنك امتزجت وصرت هجينًا!..

ضاعت منك عروبتك الخالصـة،.. كشف عنها لمعان عينيك غير المعتاد، ولسانك العربـي، أتشعرين به؟ أسفي عليه لقد اختلط بعجمة غريبـة.. وجمالـك العربي بهت، جف، ضاع منـك، بمجرد كلمات لينة نضب، وأصبحـت صحراء قاحلة، ومازج الكفر إيمانك.. وغرك الربيع وغرك الشباب..!

كنـت طفلة ساذجة بريئة، خدعـوك بأقوالهم التي يدفعونها مجانًا دون عناء، إنها مهرهم للدنايا والخطايا.. قالوا لك:

- كم أنت جميلة!.. كم سخية أنت!.. كم هي ذابلة عيناك..!!

فأضرمـت النـار فيهـا، وأصبحت تغتـال كل مغـرم بالتحديق في العيون البريئة، وقالوا لك:

- كم هو جميل! كم هو طويل شعرك! وكم هو أملس !!

فرحـت تمنحينه شعراءك المعجبين، ونسيـت أنهم مثلك يذوبون أمـام الكلمـة والنظـرة! غرك كل هـذا فرحت تمنحيـن وتمنحين دون توقف إلـى أن نضبت بئر قناطرك المقنطرة وكنـوزك المكتنزة، ماذا بعـد؟!. فكري فقد تجدين شيئًا ما.. وحتى هم لـم يعودوا يقبلون شيئًا منك.. علموا أن بحر عطاياك نضب.. وهم لا يريدون البقايا البائتة.

«شريط مر.. ذكريات مؤلمة» مؤلمة.. وبرغم مرارتها مازال خيط الحنيـن يربطك بها، ويدفعـك الحنين إليها، ولعل هـذا سر انتظارك يـا غبية!.. اعذرينـي فأنا لم أعد أطيق شيئًا فيـك!.. أتجلسين هنا؟.. أتنتظرين؟.. إنك تنتظرين سرابًا.. تقلدين الشمس، ها هي تي الشمس حـان موعد نومهـا، نوم مؤقـت تعود بعده مثلمـا كانت. أمـا أنت فإلى الجحيـم تسيرين.. إلـى الأفول.. غابت الشمس وأنـت جالسة تراودك الأحـلام.. أدرك الظلام كل شيء، فلا تحاولـي الإفلات من قبضته.. ولعـب الريح بشعـرك الذي لو تتذكرين كـم شويعـرًا أو متشاعرًا لهث وراءه.. وأنشـدوا فيـه قصائدهـم.. أمـا اليوم فأنت وحـدك، الظلام أمـامك، والظـلام من خلفك، وعن يمينـك، وعـن يسـارك، وفوقك،

لا شـــيء إلا الظلام وأنــت.. إلا أنت، وأنت صرت ظلامًا داكنًا، لا شاعر وراءك، ولا معجــب، ولا منبهر، لفظوك جميعًا، ولفظتك الدنيا، لم يبقَ في حوزتك سوى الرياح.

لا تتعجبي، فأنت التي في حوزتها تلعب بك، وتعبث بشعرك الطويل الكستنائــي، تقوده حيث شاءت فتخامــرك الأخيلة، وتسيرين إلى حيث أرادت لــك الرياح؛ لتبحثي عن فقــراء أو محرومين.. بعثرت العواصف خصلات شعرك فوق جبينك وعينيك، وغطت عنك الوجود الذي غطاه قبلها الظلام. « آه.. آه.. أف.. آ».

لِمَ البكاء؟، لِمَ النحيب؟ أتعبتني أختاه، لا عليك!. احترقي بزفراتك الحارة، تنهدي، تأوهي، ابكي.. إلا اللطم،.. كل شيء إلا اللطم.. ابحثي عن دواء يشفي غليلك، فصيدليتي الآن خاوية، أفرغت في جعبتك، كل ما عندي من مهدئات، منذ البداية وقبل أن تنزلقي إلى الهاوية.. نورت لــك الدرب.. لكن قلبك كان أعمى لم يــدرك ذلك النور، ولم يبصره.. تستيقظين ويداك تمتدان نحو خديك الملتهبين بالحرارة العربية، وكأن قيــدًا من حديد يشدهما.. تستيقظين على صــوت منبهك.. منذ أشهر وأنت تخططين لهذا اليوم، بل لهذه الثواني القليلة، وفي النهاية توقفين نداءه!..«مــا هذا بصوت المنبه».. من أين لك بهذه الآذان الصاغية؟! بالأمــس فقط كنت لا تميزين بين صــوت المنبه وصياح الديك.. ونداء المؤذن..

قفــي الآن هنا، لا تحاولي الهروب من نفسك، فأذان الفجر ينادي، كنــت تسمعينه قبل هذا، فتفكرين في الخروج من غير وقت محدد، أما

اليوم فإياك أن تفعلي ما تريدين.. إياك.. خذي وضوءك الأكبر.. أقيمي صلاتك.. قفي هنا عند هذه النقطة.. لا تخرجي، فالأبواب موصدة والظلام باسط جناحيه!.. هل تعلمين لماذا كنت مقبلة على جريمة شنعاء.. لأنك لم تكوني تفقهين لغة الأذان ولأنك كنت (...) أما الآن فتعلمي وضع النقط قبل إنهاء الجمل، وإلا فالضياع.. الضياع!..

الخريف والأمل

الرياح الهوجاء تحرك الثوب المهلهل، تتلاعب به، فتتطاير أشلاؤه في الفضاء، ويرتفع قليلاً فتسري البرودة. أخذ الثلج يتساقط بغزارة فيغطي كل شيء، ويغزو ببرودته قلبها فترتجف، ولكن هذا القلب كان دومًا مغرمًا بتلك الأطياف المتحركة تحت الظلمة الحالكة، قلبها يكاد لا يبرح مراقبة أولئك السائرين تحت الغبار، وتحت البرودة، وتحت الحرارة والظمأ، بقلوب مفعمة بالسعادة، تدفعها قساوة الطبيعة إلى التفاؤل والابتسامة.

منذ الخريف الماضي، بل الذي قبله وهي تتأمل هؤلاء الذاهبين كل صباح إلى الأمل، والعائدين كل مساء، وإشراقة الأمل تنير وجوههم، وبصيص من الأمل يأبى مغادرة ذلك القلب الحالم يدفعها إلى التمني أكثر، وإلى الحلم البعيد، وانتظار النور الذي يحطم كل ظلمة. ستنتظر الخريف.. أي خريف بصبر وتفاؤل، فقد انتظرت خريف هذه السنة، ولكنه مرّ سريعًا، ولم تستفق من حلمها وانتظارها إلا وشهر من الشتاء قد مضى! أهكذا تجري الأيام؟! أهكذا ينتظر الأطفال عامًا كاملاً

قدوم يـوم، وفجأة يمضـي اليوم سريعًـا، وتنسي الأيـام الطفلة فرحة تمنتهـا في مثل ذلك اليوم؟! غيـر أن قلب الطفلة لم يعرف اليأس بعد، تنام لتستيقظ، وفي كل صباح تسأل عن يومها، هكذا كانت تسأل دائمًا والدتهـا عن الصيف، وعن الخريف المنتظر، وكم بقي له؟ مثلما كانت تسألها عن العيد، وقد بقيت أيام قلائل، وفي كل يوم تفتح عينيها تنادي بلهفة والدتها؛ لتعرف كم بقي للعيد والخريف. وها هي الآن وقد مضت الأيـام مسرعة تسأل عن الخريف المقبل، فالماضي ابتعد عنها كثيرًا، والآتي لا يزال بعيدًا، ولكنها ستنتظر بقلب حالم دومًا وروح مشرقة. إذا مضـى خريف هذه السنة، فإنها تنتظر الخريـف المقبل، أو الذي بعده فبعـده، ستنتظر كل عام فقد تجد في خريف آخر عمرها شمعة تضيء لهـا درب الحياة،قد يشرق النور في آخر خريف ينتظره الفؤاد، فيفعمه بالآمال التي لا تموت والأحلام الدائمة.

كانـت ضوضـاء الأطفـال العائديـن مـن المدرسـة النائيـة تملأ مسامعهـا فتطربها وتزيدها شوقًا للخريـف، وبينما حليمة تتأمل أيدي الأطفـال، وهـي تقبض على المحافظ المتحركة تحـت الظلام وتتخيل مـا تضمه من أقلام وكراريس، سمعت نداء ظنته بعيدًا، وكأنه من وراء ألف جدار، صوت مختنق تسرب إلى مسامع حليمة أخرجها من عالمها المنتظـر وحلمها القريب البعيد، استـدارت لتبحث عنه، فإذا بالوالدة تقـف أمام الباب شاحبة الوجـه، صفراء الجبين تنادي طفلتها بصوت مبحوح تخنقه العبرات المكبوتة.

خرجـت الوالـدة لتذكـر الطفلة بما يجـب أن تعملـه، فالليل مقبل بظلامه الدامس وبرده القاتل، يجب أن تذهب حليمة للبحث عن البقرة

قبل أن يشتد الظلام الذي بسط جناحيه، ولم يصبغ الكون بلونه الداكن بعـد، وحليمـة تستطيع أن تعرف ما تحته من أطيـاف، تستطيع أن ترى البقرة الغراء ووليدها.

تحركـت حليمة، مشت قليلاً ثم تراجعـت، خطت خطوات عريضة نحـو والدتها ورأسهـا بين يديها تمسح عنه نـدف الثلج المتراكمة فوق الضفيرتين والجبين والحاجبين:

- سأذهب أماه، ولكنني أخاف الذئاب والكلاب، بل وحتى الظلام.. أمـاه، إني أخـاف أن أسمع نعيق البوم مرة أخـرى، ذلك الصوت الذي كنـت أحبـه، لكنك ووالـدي تكرهانه، فنمـا الخوف بقلبي مـن نعيقه، ولماذا تخافين أمي من البوم؟ هل تفهمين ما يقول أم أن أبي علمك سر صوتـه؟! لماذا انتفضت يا أمي، ولماذا اسود وجه والدي لما أخبرتكما أني سمعته أكثر من مرة هذه الأيام؟!.

بحر مـن الأسئلة صبته الطفلة على قلب والدتها التائهة، فلم تجد مـا تقوله،.. ربتت على كتفـي طفلتها؛ لتسرع في الذهـاب إلى البقرة، ولـم ترد على أسئلتها الحائرة، بل لم تجـد جوابًا. نعم لماذا تكره هذا النعيق؟! ألأنها وجدت والديها يكرهانه؟! الناس يتشاءمون منه؟ لماذا تشمئز نفسها كلما تحدثت عنه؟!

- عندما أجد الجواب سأخبرك صغيرتي، سأخبرك غدًا أو بعد غد أو عندما يأتي الخريف المقبل ضاحكًا!!

حليمـة تعرف مـكان البقرة والوليـد، ولكنها لم تتعـود أن تتركهما لمثل هذا الوقت، كانت والدتها تذكرها، كما كانت نفسها تنبهها لذلك،

منذ زمن وحليمة تذهب إلى الحقل مساء، وقد متعت العين من الصبية وهم عائدون، غير أن الأطفال اليوم تأخروا، قد يكون البرد أعاقهم فاختفوا حينًا بعدما عودوا حليمة على الانتظار والأمل. تعودت حليمة الطفلة أن تخرج صباحًا مثلما يخرج هؤلاء؛ لتراهم وهم يمرحون ويجرون، والمحافظ ترقص فرحًا في أيديهم، مثلما يستيقظ هؤلاء فجرًا تنهض هي، ومثلما يحضرون شؤونهم ترتدي هي ثيابها؛ لتراهم وهم ذاهبون إلى المدرسة برغم البعد وبرغم البرد، ومثلما يعود هؤلاء مساء تجلس حليمة أو تقف كعادتها منذ الخريف الأول تنتظر قدومهم بفارغ الصبر؛ لترى الفرحة مرتسمة على الوجوه، وقد امتزجت بالإعياء، فتغدو القسمات أبهى وأجمل.

كانت حليمة تجري فارّة من الظلام وإليه، وإلى البقرة وأطياف من الأفكار تملأ ذهنها..

- يفصلني عامان عن الدراسة.. سميرة.. آمال.. عمر.. علي.. أتراهم كلهم في السنة الثانية، وأنا هنا أجري خلف الظلام والبقرة؟! ولكن أبي.. سأنتظر، عندما يأتي الخريف المقبل يدخلون السنة الثالثة وأنا الأولى.. ثلاثة أعوام أو أربعة أو خمسة بيني وبينهم المهم أن أذهب.. لماذا لا أدخل المدرسة مع آمال؟! ألأن أباها لا يمرض خريفًا..؟

في الخريف الماضي أقامت التقاليد جدارًا بينها وبين المدرسة، وكانت آمال وسميرة الوحيدتين اللتين أفلتتا من قاموس القرية، ولما قرر الأب أن تدخل الطفلة المدرسة، ولو بعد العمر المحدد بعام، مضى

العــام مسرعًا وجــاء الخريف ليجد الوالــد قد سقط مريضًــا أشهرًا، ومضــى العام ولم تدخل حليمة المدرســة، مضى الخريف مسرعًا فارًّا مــن حليمة الطفلة ومن قلبها الكبيــر.. وهذه السنة الثانية لم يبق منها غيــر القليــل، سنتان من عمــر الدراسة ضاعتــا.. التســاؤلات الغريبة التائهة تعذب قلب الطفلة، مرة يضحك الفؤاد تفاؤلاً بالخريف المقبل، ومــرة يبكي خوفًا من المرضــ، ومن تلك المحنة الســوداء التي غلفت وجــه والدتها لمّــا أخبرتها أن يومًا غنــى لها أكثر من مــرة على أفنان الأشجار، وهي تراقب العائدين من المدرسة.

لم تعد حليمة تفكر في الظلام ولا في الوحل ولا في البرودة، كل ما يهمها أن تعود إلى البيت مع البقرة وعجلها الصغير لتجد الوالد قد خف عنه الألم. لتطلب منه أن يحكي لها قصة السلحفاة، تلك القصة التي لا يرويها لها إلا على فراش المرض، ولا يرويها إلا ودموعه المكبوتة تتلألأ في عينيه فتزيدهما بريقًا وأملاً وتنجب البسمة من شفتيه.

– أي مرض هذا الذي لا يزور والدي إلا خريفًا؟.. لكن أبي يعلم أن الله يستطيع إنقاذه مثلما رحم السلحفاة التي أدركها الجفاف وسقطت في البئر مخلفة صغارها، أدركتها رحمة الله فعادت إلى أبنائها بعد أن هطلــت الأمطار وامتلأت الآبار. مثلما رحم السلحفاة، فإنه يستطيع أن يشفــي والدي من مرضه، لا يهم الخريــف أو الشتاء أو الصيف، المهم أن يشفــى والدي من هذا الداء.. لكن ليتــه يشفى قبل الموسم القادم؛ ليذهــب معــي إلى المدرسة للمــرة الأولى، كما ذهبت آمــال مع والدها وذهب الأطفال جميعًا!!

البـرودة تشتد، والجليد يهوي على قلـب الطفلة الدافئ الحالم، فلا يرى غير قطعتين صغيرتين تتحركان تحت الظلمة الحالكة. راحت الطفلة تنفـخ في يديها، باحثة عن دفء يملأ قلبهـا الخائف، وكلما اقتربت من تينك القطعتين زادتـا نأياً، تراءت لها البقرة بعيدة، ولكنها ظلت تجري وقـد ألقى الليل بكلكله علـى الدنيا، فغابت القطعتان ولم تعد حليمة ترى شيئًـا، كانت تجري وتبحـث ببصيرتها ومشاعرها المرهفـة وحواسها؛ علهـا تسمع أنفاسها وتؤنب النفس المولعـة بالانتظار. ابتعدت كثيرًا عن الديار، وملأ عواء الذئاب الجائعة الباحثة عن فريسة في الخلاء مسامع حليمة، ولكنها ظلت تجري إلى ذلك المكان الذي غدا بعيدًا.

امتـزج نباح الـكلاب بعواء الذئاب، فأنزل الرعـب في قلب الطفلة الحالمـة بشمس الخريـف.. وراحت البومة تضفي علـى هذه الأصوات الجائعة نعيقًا حارًا، فتراءى المأتم قاتمًا أمام عينيها، الظلام والذئاب والـكلاب، ثم هذه البومة التي أخذت تمـلأ الفضاء بنعيب كان بالأمس غنـاء، أما اليوم فكل شيء عظـم من خوفها وآلامهـا وعيائها. تصبب العـرق من جبينها برغم الجليد، وأحسـت الطفلة بالحرارة تفيض من جسمها المثقل بالأعباء وقدميها المنتعلتين بالوحل.

ابتعـد الخريف، ولم تعد حليمة تفكر فيه، ولا في قصة السلحفاة.. أن تصـل ذلك المكان القريـب البعيد، أن تعود إلى البيت ومعها البقرة والوليـد.. تلك غايتها.. تسربت أنفاس حارة إلى مسامع حليمة، أنفاس تعـرف منبعهـا، لكنهما لا يـزالان بعيديـن، حدثتها بصيرتهـا الحادة بذلك فخفت قدماها وجرت كالبرق إلى حيث تميل النفس، فقد عهدت تلك الأنفاس الدافئة.

راحـت حليمة تجـري إلى حيـث تقودهـا النفس، ولكنهـا سقطت فجـأة، وعلـت منها صرخة دوت فـي هدوء الليل وغـزت أمن الكائنات التـي تختفي من الإنسان نهارًا وتخرج ليـلاً عندما ينام الجميع للبحث عن طعام. فـرت الذئاب وتبددت أصواتها بعيـدًا خلف أستار الظلام، وطـارت البومـة تكتم بكاءها، ولكنــه لا يلبث أن ينفجر فـلا تسمع منه حليمة إلا الهمسات، فقد مضى ليحتضنه الليل بعيدًا عن هذه الصرخة التـي أرادت منافسته. تبددت الأصوات، وهدأ الليل فلم تعد تسمع غير أنفاسـ متقطعـة بعيدة وغيـر نباح رهيب يـدور حولهـا، راحت تلتقط الحجـارة بكلتا يديها، وترمي ذلك الكلـب الذي مازال يبحث عن شيء آخر وبحـركات تائهة مرتجفـة تصيبه مرة وتخطئ مـرات، وقفت في مكانها لا تستطيع حـراكاً، وظلت ترميه بالطين والحجارة وبكل ما تقع عليـه يداها، فسواد الليل لم يسمح لها برؤيـة أي شيء. رمت بحركات خائفـة طائشة حتى غدا النباح بعيـدًا أو تبدد في الشعاب والوهاد غير عابئة بالنزيف الذي حل بقدمها.

وعـادت إلى الليل طمأنينتـه وهدوؤه، واقتربـت الطفلة من البقرة النائمـة والوليد، جلست بينهما والدم الحار ينـزف من ساقها، راحت تبحـث بيديها؛ علها تجد ما تضمد به الجرح، فقد أدمى الكلب ساقها، لا شـيء غيـر الطين والحجـارة. تحسست الجرح وهـو فاتح فمه، كان بحـرًا من دم، جرح شقه الكلب من الوريـد إلى الوريد، الدم يتدفق ولا شـيء أمامها.. يجـب أن يهدأ الجـرح وينام مثلما نـام الليل، انتزعت منديلها وتركت الشعر عاريًا للجليد يلفحه؛ لتغطي الجرح الكبير، لتكم فمـه؛ لكي لا يبكي ويبكيها. الدمـوع تريد النزول من شدة الألم وحليمة

تردهـا، تخنقها؛ لأن الليـل لا يبكي، ولأن الذئب لا يبكـي، ولأن.. تمرد الـدم على المنديل الكثيف واصل تدفقه، مـدت يديها الصغيرتين إلى فستانها، مزقت منه قطعة..

أسرعـت.. فالوالـدة تنتظر تحت تلك الشجـرة، والأب وحده فوق فراش المرض يتقلب ويتألم، يسأل عن حليمة.

ربطـت حليمة جرحهـا وقامت برغم الألم مستنجـدة بالظلام أن يرعاها من الـكلاب والذئاب؛ لتجري خلف الخريف قبل أن يأتي بغتة، ثم يمضي فارًّا من قبضتها. كانت تسير وتحدث نفسها عن آمالها تحلم بالشفاء وبالخريف وبالمطر الذي ينقذ السلحفاة لتعود إلى صغارها.. كانـت تسير وتحـدث نفسها عن آمالهـا العريضة، وتحثهـا على السير مهما كان الجرح بحرًا.

- عندمـا يصبح الجرح بحرًا يجب أن أعود لأسمع قصة السلحفاة ألـف مرة، يجب أن أجـري لألحق بالخريف، يجـب أن أكون السفينة.. عندمـا يصبح الجرح بحرًا يجب أن أصل قبل الخريف، وقبل المرض، وأن أصل مع الصباح..

مهما أدمى الانتظار الفؤاد فصار جرحه بحرًا، وأدمى الليل النفس، وغـدت جراحاتها بحـرًا! ومهما شق الكلب بحرًا فـي الساق، فستجري حليمة لتلحق بالركب قبل أن تلتهم الذئاب والبومة الأمل.. كانت تجري وتحث البقـرة والوليد على الجري والدم يتدفق من بحره، فقد حدثتها النفس أن الخريف غدًا...!!

المـــرآة

كانت أنفاسها الحائـرة تغزو صمت الغرفة الهادئة، تبدد وحدتها، يملأ الضجر الغرفة، وتتبعه الحيرة عجلى، فتطلق تلك القابعة في ذلك الركن المظلم مرة أخرى زفرات مختنقة ساخنة.

النفس حائرة والغرفة ضاجرة والأوراق هي الأخرى تائهة، تكدست فوق المكتب المثقل بلا انتظام، أوراق حمراء، صفراء، زرقاء، بيضاء، تتصارع الألوان ليبقى الأقوى والأنقى.

اليـدان تتحـركان في غياهب المجهـول، فتصطك قـارورة الحبر بقـارورة العطـر، يتصافح ذلـك الحشـد الهائل من الألـوان والروائح ويتمازج. منذ أشهر والفراغ يمزقها، بل منذ أعوام، ويزداد كلما وجدت نفسها وحيدة، لا أحد يحدثها عن زيف الحضارة وبريقها، لا أحد يقدم لهـا تقريرًا عن أحـدث مستجـدات الموضة، أحدث صيحـات العطور والثيـاب.. عودوها بأخبارهـم اللامنتهية عن مستجـدات الحضارة.. الجري وراء تلك المخـدرات التي تجعلها الأسعد والأجمل.. وصدقتهم

المرآة حيناً من الدهر، وأرتها الصورة الكاملة للجمال المزيف والبريق المغشوش.

الأوراق تتصارع عليها الألوان، الصفرة تهاجم الحمرة، وتذوب الزرقة في البياض، ويتلاشى الحبر الأسود وتسقط الأقلام، تنفض أميرة الأمس يديها وتلملم أوراقها الحائرة، وتجلس والألم يعتصر قلبها الجريح، والحيرة والتساؤلات تتجاذبانه، لماذا هجرتها العيون؟ لماذا فارقت مسامعها كلمات الثناء؟ لماذا قطعوا عنها ذلك النفس من الأخبار التي كانت بمنزلة الهواء الذي تستمر به حياتها؟!!

- ولكن حسناً فعلوا فقد أتلفت تلك المستوردات كل ما أملك.. ثم إن ما عندي من عطور وأصباغ و... و... يكفي إلى أجل مسمى، وسأسأل نفسي عما جد في ساحة الجمال والأناقة.. سأعرف أحدث موديلات الموضة الصاخبة.. سأعتمد منذ الآن على نفسي ولن أتطفل على موائدهم القديمة.. لن أنتظر منهم جريدة أو مجلة، لقد أصبحت قادرة على كل شيء.. سأقتني أفخر الأشياء؛ لأرغم المرآة على الاعتراف، وأرغم أعينهم على النظر..!!

استلقت على حافة سريرها وراحت تتساءل عن غضب المرآة، يجب أن تبدل بها مرآة أخرى تفهم معنى العصري.. ومعنى المستجلب من وراء البحار، وتفهم معنى التمدن، بل يجب إقناعها، إرغامها على الاعتراف، على النظر، أليست من مستحدثات الحضارة..؟!

انتصبت غاضبة، وقادت خطواتها نحو تلك العطور والأصباغ الجاثمة فوق المكتب، المنتظرة من يقتل شوقها وحنينها.. راحت تحمل

بيديهـا المضطربتين الأصباغ، وقفت أمام المـرآة تسألها: أي الألوان أولـى؟ ربما تبـدأ بالزهري.. لا بالأحمـر.. فتغمس يديهـا في الحمرة وتمدهما إلى الوجه المتعب الذي اختنق لونه وتلاشت قسماته واتسعت تجعداتـه! ثم تنظر إلى المرآة فلا تقرأ شيئًـا في صفحتها الغامضة.. تحمل لونًا آخر.. وتعيد الكرة أمام ضباب المرآة وجحودها!!

ظلت اليدان تنتقلان من لون إلى لون، ومن عطر إلى عطر، والقلب والنفـس يتابعان ذلك الانتقال دون جدوى، فلـم تعد المرآة تكشف لها غير الزيف والخداع.

ترقرقت دمعتان منها في المآقي وهي تقاوم الغضب والحيرة بتعديلات طفيفة، تزيد من هذا وتمحو آثار ذلك، ولكن.. يبقى اللون واحداً، والشكل واحداً، والقسمات باهتة مثلما كانت، والضياع يهدد العينين الباحثتين عن زيف الحضارة، عن الجمال، عن السعادة الترابية.

اختلطـت الألوان وغدا الوجه مزيجًا منهـا جميعًا، ذابت ملامحه، لا شيء غير العينين الثائرتيـن عليه وعلى المرآة وعلى الأصباغ، وغير الأنفاس المتقطعـة الغاضبة التـي تقذف بها رئتاهـا، وغير الطرقات الخفيفة التي كانت تسمعها ولا تجيب الطارق.

تحركـت نسيمات في أحشاء الغرفة المفتوحة النوافذ، أعقبها تيار بارد جليدي كقلب هذه الثائرة على كل شيء، هذه التي أدمنت الأصباغ والألـوان والعطور، وعشقت مخدرات العيون والقلوب فخدرت بها زمنًا، وهـا هـي الآن تفضحها بعـد أن امتصت نضارتها القديمـة وإشراقتها وجمالها البريء.

- يجب أن تعترف المرآة.. يجب أن تبصر..

قــد يكون الفستــان الأصفر هو الــذي أضفى عليها هــذه المسحة مــن الشحــوب، فلتلبس الأحمــر أو الأزرق، بل الأبيضــ لينسجم مع كل ذلــك الجدار من الأصبــاغ. ولكنها ترفض في الأخيــر كل ذلك الحشد مــن الفساتين أمام جحود المرآة أو اعترافهــا، والهواء يصفع النافذة فيرتفــع الشعر المعالــج بأصناف المراهم والعطــور، وتلتوي خصلاته وتتداخل كالهشيم عندما تذروه الرياح.

- أين التي علمتني فك ضفائري.. أين الرفاق المعجبون.. آه بقيت وحدي في المتاهة ألتوي.. وأكتوي..!

رمــت بالفساتيــن علــى حافــة السريــر، وراحت تضــرب الحمرة بالخضــرة بالزرقة.. القواريــر تصطك، وشظايا الزجــاج تتطاير من حواليهــا، والعطر يبحــر في ساحة الغرفــة و«أميرة الحســن» في زمن مضــى ترثي زمن الزيف والخداع، يملؤهــا الغضب على المرآة والعيون الجاحــدة. مــا عادت تعرف طريقــة أخرى للخداع، ما عــادت تستطيع إخفاء تجاعيدها الكثيرة، ما عادت تقدر على إخفاء حيرتها وضياعها. الامتحانــات علــى الأبــواب، والدفاتــر تستغيــث، والأوراق تائهــة فوق المكتب، يختلط حبرها مع تلك الألوان والسوائل، فتغدو باهتة كملامح صاحبتها.

تعــود إلــى المرآة ثانيــة تتأملها، تسألهــا ولكنها لا تجــود عليها إلا بالحقيقــة التــي رسمت على صفحاتهــا، مزيجًا من ألــوان، خليطاً من ترسبــات لا منتظمة، خليطاً مــن أصباغ خارجة عن حــدود المعقول..

اعتراهـا الذهول، تكاد تسأل نفسها من تكون.. لا أحد يجيب، فقد قتل الزيف كل أصالة، ومحا كل انتماء.

شعـرت بالاختناق من تلك العطور المتمازجة، فراحت تفتح الباب لتجلـب هواء نقيًّـا، حتى الغرفة لم تتحمل رائحة هـذا الخليط الذي لا يختلـط. مشت بخطوات متثاقلة نحو السرير، تمددت كالجثة الهامدة، وراحت تسأل نفسها عن سر هذا الصداع، هذه الحيرة، ذاك الذهول.. يداهـا هما البادئتـان بالجرم.. هما اللتان عبثتـا بالشعر أولاً، سمحتا للحضـارة بأن تجول فيـه وتحصد ما تشاء منه.. ثـم راحتا إلى الوجه الذي لم يتعود زيف المدنية؛ لتغرقاه في بريقها الآسن.

هـذه اليد التي كانت تتحاشى هبة ريح، تخاف رائحة الرجل حولها غرفت حتى النهاية، أسلمت الأصابع والأكف، تركت اليد تبحر في أكف الآخريـن، ثـم أبحر الشعـر.. وأبحر كل شيء فيها في بـرك الحضارة الآسنـة، تمرغت في أوحالهـا حتى الثمالة وها هـي الآن تستفيق لتجد نفسهـا قـد عبت من الزيـف، من الكـدر والطين، ولا شـيء يداويها أو يغسل ثوبها.. ويرجع إليها طهرها.

يـوم رآها أميـر الوفاء تسبـح.. تريـد الغوص في بحـر الحضارة أجـرى في اليم الكبير سفينة، وراح يلهث وراءهـا؛ ليمنعها من الغرق، كانـت تطير من مكان إلى مكان، كلما مدّ لها الخيط ليجذبها إلى حيث الطهارة والصفاء قفزت لتصطدم برجس من أرجاس بحر الحضارة، كـم نـادى بصوت يخنقـه الموج؛ لينجيهـا من عباب البحـر المرتطم الأمـواج!! لكنهـا لجأت إلـى الحضـارة تأويها، ارتفعـت الأمواج وحال

المــوج بينهمــا، أبحر بعيدًا؛ للبحث عن حلم هــادئ جميل كنفسه، ولم تعــد تسمع عنه شيئًا، فقد أغراها بحر الحضارة زمنًا، أطعمها إلى حد التخمة بمستجداتــه، سقاها مخدراته حتى الثمالة. آواها البحر زمنًا، أنــار لهــا الدرب بظلامه الدامســ زمنًا، وها هو ذا قد ثــار عليها الآن، ارتفعت الأمواج وأزبد البحر، راحت تضرب الأمواج بيديها اللتين امتص الزيــف كل قــدرة فيهما، والشاطــئ بعيد، لا أحد في اليــم غير الغرقى والغائبيــن عن الوعي، غــارق يستنجد بغريق! تعالــت صيحات الضياع والحيارى، أحست بالاختناق، الأمواج تداهمها ولا يدَ تدركها، عبت من الأمواج، وهوت إلى القعر؛ لتعب من بحيرة الأكدار والطين.

انتظار تحت شمس الغروب

توسط قرص الشمس السماء، وهي لا تزال قابعة في ساحة الدار كتمثال هامد لا حراك لها. مرّ بها بعض أهل المزرعة، لكنها لم تطر كعادتها إلى البيت.. لم تعرهم اهتمامًا!! فقد كانت شاردة سابحة في الآفاق البعيدة تبحث عن شيء ما.. ضاع منها.

شمس هذا اليوم محرقة، امتد لهيبها الوهاج للبحث عن قطعة لم تلفحها شمس صيف المزرعة بعد، فلم يجد أين يدس أشعته! لقد مضى عليها أكثر من شهر، وهي تلفح ذلك الوجه الأسمر الشاحب، وتلك اليدين الريفيتين اللتين تعودتا العمل في زمهرير الشتاء، وتحت لهيب الصيف.

طاف أحدهم بالبيت غير أن عينيها كانتا تبحثان عن شيء صقله صيف المزرعة بحرّه وجفافه وغباره الذي تذروه الرياح على الوجوه.. والريفي لا يبالي بها، ينفض الغبار بكلتا يديه ويذهب ليتحداها. لم ترفع عينيها إلى هذا الذي علمته المدينة الرقة والليونة، والذي لم

تتعطر روحه برائحة الريف، وتأكدت من ليونته عندما ارتفعت الشمس قليــلاً، وصوبـت سهامها المحرقــة إليه، فراح يبحث عــن الظل. مشى متثاقـل الخطا إلى البيت، حيث الظل والماء البارد، متسائلاً عن سبب انتصــاب جميلــة في ذلك المـكان منذ الصبــاح، ولا مبالاتهــا بسهام الشمس المحرقة.

تجمعـت قطـرات العرق فوق الجبيـن، وأحست فعـلاً بالحريق في أحشائهـا، فنهضـت ومـدت البصر بعيـدًا، ولكن لا أحد فـي الطريق! عجبًا لم يعودها مرارة الانتظار هكذا! كان يعود قبل أن تشرق الشمس، ولكنه اليوم تأخر أكثر مما يجب.. غزت الأفكار ذهنها الشارد، وملأت الأسئلـة عليهـا كل شيء. خلّف البقرة التي مضـى عليها نصف اليوم، وهي حبيسـة لجميلة ترعاها، ومشت نحوها لتجدهـا واقفة تنتظر يدًا تمشط شعرها، وتفتح لها الباب لتخرج، وحنجرة تطلق لها أصواتًا عذبة تحولها من اتجاه إلى اتجاه، كم هي شاحبة اليوم، وقد ملأت الأعشاب الدنيـا فكيف ستكون إذًا فـي الشتاء حيث يفرض عليهـا الحصار فلا تخرج ووليدها إلا نادرًا وقد لا تخرج حتى يطل عليها الربيع!!

حدثـت البقـرة بقلب منتظـر، وراحـت تمشط شعرهـا والسعادة تغمرهــا بمــا بذلته من أجل هــذه الرفيقة في الشهر الــذي مضى، يوم كان محتمًا عليهـا أن تخرج ليلاً وعين والدها ترقبها من بعيد؛ لتقتفي آثــار الحاصـدات، وتجمع ما شاء لهــا الله من قصب الشتــاء.. حينها كان الوالــد مريضاً.. وهل شفــي الآن حتى تقول: إنه كان مريضًا؟! إنها تعلـم أن الألم مازال يعذبه، امتص منه الكثير، فغدا شبحًا يمشي على الأرض، وزادتـه محنــة الحر هذه، فجففت مــاء البئـر الأم التي ينهل

منها أهل المزرعة جميعًا مما اضطره للبحث عن الماء مريضًا كان أم سليمًا!!

حملت حزمة من القصب بعناء، ووضعته بين يدي البقرة؛ عله يسد رمقها ريثما يعود الوالد.. الوالد!! وتذكرت غيابه الذي طال، ما أشد حرارة الانتظار! ما أمر الانتظار المجهول!! عادت إلى مكانها من جديد لتبحث عنه بعينيها السوداوين المغلفتين بمسحة من الكآبة والشحوب في الطرق الممتدة، قد يأتي من هذه.. لا، بل من تلك فتلفتت إليها، بل ربما من هذه فهي الأخرى تؤدي إلى إحدى الآبار!.

ظلت جميلة واقفة تحت قرص الشمس تدير البصر والفؤاد بين الطرق الملتوية دون جدوى. الناس في مثل هذا الوقت من النهار يكونون قد قضوا شؤونهم، وهم الآن في ظل البيوت وبرودة الماء، أما جميلة فوحدها تحت شمس المزرعة الحارة التي أبت إلا أن تقبل وجهها الشاحب كهذه الحقول الحزينة المتأوهة. اشتد عليها الحر بعد أن سرت الحرارة في العروق، واشتد بها الظمأ فدخلت البيت تبحث عن جرعة ماء بارد تطفئ نار الفؤاد، وتذيب قطرات العرق التي كادت تغزو بريق عينيها. لم تجد شيئًا فالوالد لم يعد بعد، وليس من عادته أن يطيل الغياب عن البيت فهو يعلم أن جميلة وحدها، وأن البقرة تحتاج إلى من يقودها إلى الحقل لترعى، وإلى الوادي لتشرب، ثم هذا العمل الذي ينتظره والذي لولاه ما وجد ما يستدر منه القوت.

سبحت بعيدًا فأنساها التذكر الظمأ.. وأنساها الحر، ولم يعد لهذا البيت أن يضم جميلة وحدها، فخرجت من جديد لتبحث عنه، وتسأل

بعـد أن نفد صبرها. قد يدلها أهل المزرعة عليه، وقد يواسيها أحدهم ويشاركها اضطرابها وقلقها، لم تجد شيئًا غير اللظى. نام الجميع تحت ظـل البيوت؛ حتـى لا يتصبب منهم العرق عندما يتذكـرون، وأن شمسًا كشمس هذا اليوم تلفح كل شيء، حتى الزواحف اختفت، لم يعد أمامها إلا حـل واحد أن تذهب للبحث عنه بنفسهـا، ولكن كيف تذهب ولم تطأ قدماها تلك الفيافي منذ أمد طويل، حيث كان يصطحبها معه يوم كانت صغيـرة! أما اليوم فلا شيء في هذه المزرعـة يسمح لها بالخروج حتى الكلاب. وأي مكان ستلج والآبار عديدة والأودية كثيرة؟! وهل تسمح لها ذاكرتها المتعبة باسترجاع أيام الطفولة وآبار القرى الممتدة؟!!

الشمس تخترق أشعتها الجسـم المنهك الذابل، وهي واقفة تتصارع الأفـكار في رأسها الملتهب فتمسكه بيديهـا؛ كيلا ينفجر، ويبحث ذهنها المتعب عن حل يخرجها مـن خوفها وترددها الكبيرين، الريفي لا يعرف التـردد وجميلة متـرددة!! الريفي شيمته الصبر وجميلـة تغلبها العبرات فتنزلق وتنهمر بغزارة تنزل على الأرض ساخنة كالنار! ولماذا تبكي؟..

مرت فراشة في الفضاء كفراشات الطفولة العذبة، فلوحت بيدها، وإذا بالفراشة أضحت سجينة القبضة الريفية، مسحت الدموع والأصابع تضغط على الكائن المعـذب بجماله، وتذكرت جميلة أن الإنسان يشبه هذه الفراشة تمامًا عندمـا يقبض عليه الألم وعندما تحاصره الوحدة فتعصر أحشاءه، أرادت أن تطلق سراحها، لكنها فتحت قبضتها القوية لتجـد الفراشة قد ماتت! مزقت الأصابـع الريفية الجناحين، وسحقت الرجل.. ألقتها وصورة الإنسان والفراشة تعذبها، والوحدة تقضي على بعضـ آمالها. لمـاذا الوحدة؟ قـررت أن تقتل وحدتهـا ووحدة والدها

القاتلة، قد لا تعرف نفسه إحساسًا بالوحدة، أما جميلة فلا، لقد كبرت ولم يعد قانون القرية يسمح لها بالاتصال بالغير أو الخروج، عودها أخواها اللذان يدرسان في المدينة على المفاجأة، ولم يمطرا هذه المرة بمفاجأتهما، همها الأكبر هو هذا الوالد الذي غاب عن البيت منذ الفجر، ليتها ذهبت معه ليعودا وشمس الصيف لم تشرق بعد، وأين ذهب الآن؟ ستذهب بإرادتها الريفية للبحث عنه.. ارتدت ثيابها الريفية، ومشت تحت أشعة الشمس المحرقة، تحت مظلة النار الجائعة، كانت تحاول أن تنسى لفحات الشمس كلما تذكرت أن والدها أيضًا تحت رحمة شعلة النار التي قذفت بها الشمس.

انطلقت بخطى عريضة متعثرة حينًا، كانت تلتفت إلى الوراء؛ خوفًا من أن تدركها العيون، فتحذف من قائمة الأسماء، غير أن الناس كانوا نيامًا وجميلة تجري، أخذت قطع سوداء تغزو الوجود، تكدست طبقات السحاب الداكن حول الشمس، حاصرتها، منعتها من النظر إلى من تحب، وملأت دمدمات الرعد الأسماع، وهي تجري تحت الغيوم الداكنة، وتتبعها حيث سارت. قادتها قدماها إلى أقرب وادٍ كانوا يردونه كل صيف، فأطلقت العنان لساقيها، وتطاير الغبار من حواليها، وهي تجري ولا شيء أمامها سوى النهر الكبير، والوالد الذي اشتاقت إليه أكثر مما مضى. لم تشعر بمثل هذا الخوف حتى وهو طريح الفراش يئن، أما اليوم فقد حركها بركان شوق إليه، وهز الخوف قلبها، فانتفض وخفت قدماها أكثر فأكثر.

ما هي لحظات حتى لاح لها من بعيد، رأت الأتان تقف أمام الوادي رافعة الرأس والحشيش أمامها والماء، إنها أتانهم، ولكنّ عيناها كانتا

تبحثــان عن ذلك الذي عودها عليه. من ستخدم الآن، من ينـادي عليها غيره؟ لا أحد في الدار غيرهما، يتناديان ويتناجيان.

كان شـاطـئ الوادي حزينـًـا، تجلس قربه البراميـل باكية، منها ما سقـط في الماء فساقه، ومنها ما هــو مرمي على الرمل والحجارة، أما الأتان فواقفــة برغم الشحوب وبرغم الهزال أمــام هذه الخضرة التي تحيـط بها وكأنها وسـط صحراء قاحلة، رافعة رأسهــا ترقب الطريق، فقــد عودها سيدها وجميلة أن يقدمــا لها كل شيء وها هي ذي ممتنعة عن الطعام والمــاء برغم خضرة المروج المغرية وماء الوادي!! قادتها جميلــة فاستجابــت، وقربت رأسهــا من الحشيش، وراحــت تبحث عنه خلف الأشجار المتمايسة، فآثار قدميه مرسومة على حافة النهر، ظلت تطيــر من شجرة إلى أخرى؛ علها تعثر عليــه جالسًا يتألم دون جدوى. أرادت أن تســأل، ولكــن مــن ستسأل والوقت ضحـــى، ليس هنا في هذه المروج إلا ذلك الشيخ الذي كان يرقبها، توجهت إليه وكلماته الغامضة وهمهماته تملأ أذنيها فوجدت عنده الجواب..

وجــده العمــال مغمى عليــه صباحًا في هــذا المكان، فحملــوه إلى المستشفــى وسيعــودون به قريبًــا؛ لأنه متعب. ملأ الذعــر قلبها وغزاه الخــوف فانفلتت العبرات من المآقي؛ خشيــة أن تخنقها جميلة، لكنها لم تملأ البراميل..ترفع يديها بين الفينة والأخرى تتحسسه فقد ينزلق هو الآخر ويختار الغربة بعيدًا عن الحرارة والهواجس الغامضة، ورفعت البراميــل بعنــاء شديــد. ويدان مرتجفتــان ونفس حائــرة لا تدري أين ستذهــب وقد غاب الحبيب الموجه لخطواتها؟! تذكرت نصيحة الشيخ فأسرعت المسير إلى المزرعة قبل إقبال الليل بظلامه الدامس وحمله الثقيل؛ لتنتظر هناك.

أسرعت جميلة، وهي تحث الأتان على المسير، سارتا ودمدمات الرعد العنيفة تصم الآذان. وانهمرت الأمطار كتيار متدفق، تبلل الشعر وتبلل الثوب الريفي، وغسل ماء المطر آثار العبرات. وصلت جميلة إلى البيت تعصر الثوب والضفيرتين فينزل الماء باردًا، وتعصر القلب فتنزل العبرات ساخنة. توقف المطر وظلت جميلة تنتظر الأب الحبيب بفارغ الصبر، فالشمس نامت ولن تعود الآن.. قد يخنقها السحاب أيامًا.

خرجت إلى المكان الذي جلست فيه صباحًا بعد أن تبددت السحب، وعادت الشمس حانية دافئة، وراحت ترسم خطوطاً غامضة كغموض هذا اليوم بأصابعها الريفية وتمحوها. كانت تخط وتمحو الخط، ثم تعيده. الغربان تطلق أصواتها في الفضاء وجميلة تنتظر غير عابئة بهذه الأصوات التي طالما تشاءمت منها.. ولا بهؤلاء الذين يحومون حول البيت، بل إن حمرة الغروب كانت تبعث فيها الأمل، فلا تزيد إلا خطوطاً وخطوطاً وانتظارًا تحت شمس الغروب، وأصوات الغربان المتبددة في الشعاب والأودية!!.

التلاشي في رحم الماء

المطر خيط من السماء يرقص لدمدمات الرعد العنيفة، ولا شيء يحركها سوى رائحة طيبة الشذى تسربت إليها وهي واقفة.

راحت مخيلتها الضيقة تسبح في جوف الغروب الهادئ، وكل شيء أمامها يتفجر غضبًا على «اللاشيء».. ولسوف تنفجر الأرض غاضبة لا محالة على البرودة التي تحملتها أمدًا من عمرها، ستواكب ذلك الغضب بابتسامة دافئة.

ازدادت السماء غضبًا، فقذفت بكل ما بين يديها، وازدادت الأرض عبيرًا طيبًا، تبلل التراب بعد قحط طويل فأعطى أريجًا ينسي الهموم ويذيب أكدار النفوس الخائفة.. انتصبت عائشة كشبح هادئ، وراحت تستنشق هذه الرائحة التي طالما انتظرتها، ونسيت كل شيء.

راحت تتأمل من كوة صغيرة قمم الجبال ولحن المطر الغزير يملأ سمعها، لحن يعزف للأودية والغدران الظامئة إيقاع الحياة، وتغني للسهول والربا أغاني الربيع القريب، وكانت أغصان الأشجار الهامدة

ترقص طربًا بعد أن زرع الماء في عروقها نغمة الحياة والأمل، وانتشت نفس عائشة بهذه الأنغام، فلم تعد تشعر بالوحدة التي كانت تمزقها كل مساء برغم هول السماء وقصف الرعود وتهاوي الأمطار. سارت بعينيها الحالمتين على قارعة الطريق الممتد، اجتازت روابي وهضابًا وصحاري؛ لتسمو إلى قمة الجبل حيث الخضرة والنضرة، تلك القمم التي أضفت عليها قطعان الغنم المنتشرة حولها بهاء وحسنًا، كانت تجري هاربة من هذه النعمة الكبرى، بل من هذه الصاعقة المفاجئة ولما تظهر النعمة بعد!..

تعجبت عائشة، إذًا كيف لهذه القطعان المصبوغة بلون الغروب أن تهرب والجوع والظمأ يطويانها، لماذا لا تمد أعناقها إلى السماء لتشرب ماء تندمل به شقوق الظمأ، وتنطفئ منه جمرات الجليد التي طالما تجرعتها صباحًا، نعاج هزيلة ذابلة، لكنها لن تشعر بالجوع بعد الآن مادامت السماء قد جادت عليها بما يخرج لها كلأً من جوف الأرض التي أصابها العقم حينًا من الدهر.

امتد بصر عائشة إلى الأفق البعيد، تبعته حيث شاء، فتراءت لعينها الشجيرات الظمأى تتمايل بعد أن لامستها هبات ريح وأثملها المطر. رائحة التراب المبلل تعطر البيت بأريج عذب، وعائشة تستنشقها بنهم شديد غير عابئة بقطرات الماء التي كانت تتساقط من حولها برتابة عبر مسامات الديس والبردي، منذ أن دخلا هذا المنزل وقطرات الماء تنزل من سقفه المهترئ بانتظام وحنان، فتبعث الدفء والسعادة في نفسيهما وكأنها ضيف يزورهما كلما أنجبت السماء المطر، فيستقبلانه بقلبين مفعمين بالحياة، وينظران إليه مراقبين حركاته

البطيئـة مصغيين إليه، وهو ينشدهما ألحانًا عذبة دافئة كقلبيهما. لم ترحب عائشـة بضيفها هذه المرة، فقد كانـت مشغولة عنه بالانتظار، ظلـت تائهة ساهيـة، تقف في شبـه غيبوبة تراودها أحـلام المستقبل الزاهـر، وتخنقهـا أطياف الماضـي البعيد التي ترسبـت في الذاكرة، وظلـت تبسط راحتين خفيفتين لترحب بالمستقبل المجهول، وتستغيث به؛ ليمحو مجلد ذاكرتها من ذكريات الماضي الدفينة.

ستغرس في الغد القريب وردًا في الحديقة الصغيرة، وردًا أبيض، وشجرة تين، ولوزًا، بعد أن مات كل ما غرسته من جراء إمساك السماء، كانت تعيد الزرع في كل مرة، وفي كل مرة يكون الجفاف أقوى، يفرض قسوته على الجميع صيفًا وشتاء، خريفًا وربيعًا.. الماء دائمًا.. الماء.. الحيـاة.. الربيع والخضرة والأمل.. تنهـدات عميقة انبعثت من أعماق نفسهـا المكلومة وهي منتصبة في مكانها أمام الكوة الصغيرة في تلك الزاوية المظلمة من البيت، فبصرها يمتد إلى اللانهاية، وحبات المطر ترقص لها رقصات منتظمة، ويلوح البرق مـن حين إلى حين، فتمتلئ مخيلـة عائشة بالأحـلام والآمـال العريضـة، ويسمح القلـب الخائف لبصيصـ الأمل أن يكبر وينجـب سعادة ليست ككل سعادة، فاضت من بيـن جوانح عائشة وهـي واقفة في هدوء وصمـت غريبين، وغيبوبة لا معتـادة. غير أن طائـر الليل رفرف فـوق رأسها بجناحيـه الأسودين، وغطى المزرعة والوجود بلحاف أسود داكن أخرجها من بحر أحلامها الكبيرة.. لم تعد تبصر شيئًا، امتزج الحزن الداكن.. بالأمل الصغير.. بالليل.. فملأ عليها الدنيا سوادًا، غطى الليل كل شيء، ولم تعد عائشة ترى سوى قطع بيضاء كانت تجري في الفيافي هاربة.

انســاب إلى مسامعها صوت قــوي كصوت إعصار، فيضان جارف، بــل فيضانات عارمــة تنهمر من سفــوح الجبل الشامــخ، فتسوق كل ما تجــده في طريقهــا بعشوائية ساخرة.. كالمــوت.. فتسير حيث قدر لها أن تسيــر، أو هكــذا خيل لعائشة أنهــا تسوق كل ما تجــده أمامها. منذ أن ارتبطــت بهــذه المزرعة لم تــرَ يومًا كهذا، تجــاوزت السماء مقدار السخــاء والعطــاء، أفاض سخاؤهــا بركاً فترقرق ماؤهــا وتدفق، وملأ غدرانًــا كانــت بالأمس ناضبــة، ووديانًا جف ماؤهــا، والأجمل من هذا وذاك حمــل الأرض الوديع، حملت الأرض وستنجــب عن قريب أحسن مولــود مع الربيع الــذي سيولد قريبًا.. وماذا بعــد؟ القطيع، قطيعهما الــذي لــن يشعر بالظمــأ والجوع، وسوف تجــود عليهمــا الشياه بحليب معسول.. القطيع.. وأين ذهب القطيع الآن؟ عادت إلى خوفها الذي ظل يكبر ويكبــر تحت الظلام، وراعها الظلام، فأشعلــت الشمعة الأخيرة، وراحت تنتظر بقلب يعصره الخوف.. قدوم محمود والقطيع!!

قضــت نصف ليلتها تنتظــر، وعيناها تلازمــان الشمعة وهي تودع الحيــاة بدموعهــا الحارة الصافيــة.. لو كان محمود حاضــرًا لأطربها بنايــه، ولعبر عن فرحته الكبرى بأنغامه الحلــوة التي تنبعث من جوف النــاي كلما أمطــرت السماء. الانتظار المرير وصخــب السيل الجارف يعذبــان قلبها المرتجف، أنغام صاخبة عنيفة عزفها السيل، فأضرمت النــار في فؤاد عائشــة المنتظرة، وراحت تذرع البيــت بقلب مضطرب خائــف على الزوج الغائب والقطيع. تساءلت عن سبب هذا الاضطراب والخــوف، وقــد مرت بهــا ليالٍ أقســى وأمرّ مــن هذه، ولــم تفقد فيها طمأنينتهــا، حينها عزت النفس وأنبتها فاستعادت بعض ثقتها القديمة

بعد أن ذكرت نفسهـا بقبسات الإيمان والصبر القديمة. ما هذه المرة الأولى التي يغيب فيها محمود عن البيت..!

حاولـت أن تستسلم للنوم، وقد أقنعت الفـؤاد أن محمودًا قد نام.. مثلمـا تعـود المبيت مـرارًا بعيدًا عنهـا، أطفأت الشمعة قبـل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة وقبل أن تقضي نحبها، إلا أن الأرق بات يداعب جفنيها الناعستيـن ويغالبهما. وأخيرًا استسلمت للنـوم، وقبس من النور يملأ قلبهـا فتغمره السعادة بما سيحويه هـذا البيت من فرح الاثنين. البيت الذي نسجت في زواياه الملتوية العنكبوت خيوطاً متشابكة كهذه الحياة سيصبح أكثر جمالاً وهدوءًا، سيصبح وديعًا كتيار متدفق من الصفاء، لن يسمع بعد الآن شكوى أو زفرة ألم، ولن يتردد صدى تنهدات عميقة. حاربـت طيف الهواجـس واستسلمت للكرى، نامت نومًـا عميقًا تخللته أضغـاث أحلام وأشباه رؤى،.. الورود، الزروع، السهول والروابي، وهذه الأرضـ البكر سيستفيـق كل ما كان هاجعًا في أحشائهـا بعد أن رواها الغيـث، ولكنها لا تنجب الـورود والرياحين فحسب إنمـا تنجب السدر أيضًا والأشواك والعلقم...!

استيقظـت مذعـورة خائفة بعد حلـم مزعج، كانـت تمسك رجلها اليمنى ظانة أن شوكة السدر لا تزال تؤلمها، فقد تراءى لها الألم قريبًا، والدم يقطر من قدمها، جرت في صحراء الدار فلامسها الماء، حينها استفاقت من حلمها وأدركت أنه كابوس مزعج، وتذكرت أن محمودًا لم يعد بعـد، وأن الضيف الذي آنسها في وحدتها القاتلة هو قطرات الماء التي باتت تنهال من سقف البيت المهترئ..

أولـم يعد محمود بعـد؟!.. عـادت الهواجس والشكـوك إلى القلب الخائـف.. وبعـد تـردد شديد لفـت شعرها الأسـود الطويـل، وراحت تسعـى إلـى بيوت القرية تسأل عمن رأى محمـودًا. لم يدلها أحد عليه، فراحـت تجري والخوف يدفعها في الحقول والفيافي تبحث عن محمود والقطيع.. جابت الروابي والسهول، الشعاب والوهاد، لم تعد تدري أين هي، وإلى أين تسير!! فقد كانت في عراك شديد مع الأوحال غارقة في بحرهـا، وكان صوت الفيضان العـارم لا يزال يعذب قلبها منذ البارحة وهو يحصد كل ما يجده في طريقه. تقدمت منه وراحت تسير معه جنبًا إلى جنب تتبع تدفقه الهائل بخطى سريعة، وكلها أمل أن تجد محمودًا والقطيـع في إحدى المساحات الكبيرة يستبشران ويمرحان!! تمنت أن تجده جالسًا جلسته العذبة، يعزف للقطيع لحنه الرائع والخراف ترقص لأنغـام الحب والأمـل.. وكانت تجـد نفسها بين الحيـن والآخر شاردة الذهن، هام نظرها في الأفق البعيد، وفيه تابعت معركة صراع محتدم بيـن غرابين يتبارزان حول الموت والحيـاة، دفعها الفضول إلى متابعة هـذه المعركـة العنيفة، غيـر أن عثرتها شغلتها عـن كل ذلك كادت أن تهـوي فـي فم التنين الكبير الجائـع. ناي ازدانت به الأرض، فأراد أن يجذب إليه عائشة؛ لتزدان الأرض بضفائرها.

ليسـ المهم عندهـا السقوط ولا النـاي، محمود والقطيـع بغيتها، نظـرت إلـى الناي بـازدراء فواصلت المسيـرة ولكن شيئًـا فيه جذبها فعـادت إليه لتأخذه هدية لمحمود عندمـا تخرج الأرض حملها. حملت الناي وبسمة شاحبة تملأ فاها ربما لما ستزفه لها الأيام. سارت والأمل في عراك عنيف مع أشباح الخوف وأطيافه التي غزت وحدتها وسكنت

بين جوانـح نفسها الداميـة الجريحة. وتعثرت عائشـة ثانية في عصا يغطيها الوحل، وتتدلى منها خيوط ذهبية تطوق رقبتها، تخيلتها عائشة ثعابين تفتح فمها لالتهام ما حولها..

- أهذه عصا محمود؟ قد تكون!! محمود الذي أقسم ألا يترك الناي والعصا ما عاش، وهل الحب الذي يمنحهما يقلّ عن حبه للقطيع؟ أبدًا.. هـذا كل ما يملكانه ويسعدان بـه.. وإذا الناي نايه! يتركهما هكذا.. ثم تحـاول إبعـاد الهواجس أو الحقائق، قد يرمـي بهما ولم لا؟ قد يضحي بهمـا في سبيل القطيـع.. لا لن يفرط فيهما بهـذه السهولة، لن يعملها محمود أبدًا. هي تعلم أنهما عزيزان على قلبه.

ملأ الناي والعصا عليها كل شيء، حاولت أن تخطئ بصرها الحاد وبصيرتها الحية المتيقظة، ما هذه عصاه ولا هذا نايه!!

ازدادت جريًا وراء الحقيقة الفارّة منها وازداد الحذاء تعلقًا بالطين، فتخلصت منه وتركته للأرض تبتلعه، احمرت قدماها من الجري ولبستا حـذاء طينيًّا جديدًا، وسال العرق دون جدوى، لم تجد شيئًا غير العصا والناي، وماذا يجديان؟ إنهما يزيدان القلب عذابًا وجراحاً. توقفت عن السير، وتركت الفيضان يواصل سيره، وراحت تتأمل الدنيا، وتبحث عن الطريـق الذي يعود بها إلى البيت؛ علهـا تجدهما ينتظرانها، فبصيص الأمل لم ينطفئ بعد!!.

ارتمـت بين أحضان البيـت الصغير تحمل أعز ذكـرى وعادت إلى الانتظـار والوحـدة القاتلـة التـي طالما عذبتهـا، وزفّ لهـا الخبر بعد أوانـه -فقد حدثتها به نفسهـا المكلومة- من طرف أحد الجيران الذي

عافـاه القـدر بعد أن أراحه من القطيع.. أمّا محمـود فأبى السيل إلاّ أن يحتضنهما معًا.

أحاط بهـا الجميع وكل واحد يبحث في ذاكرتـه النائمة عن كلمات لمواساتهـا، توارثـوا عبارات التعزيـة والمواساة غيـر أن ذلك الجفاف والقحط المهول جمد في حلوقهم الكلمات لكنه لم يقتلها وها هو الطوفان يذيبهـا بعد أن هجعـت، لن يقبلها لأنها هجعت متظاهـرة بالموت، وها هـي الآن قد استفاقت من نومهـا وقفزت متلاعبة علـى الشفاه الجافة المرتجفة، الخائفة حتى من الماء. زودها الجميع وملؤوا أذنيها بكلمات لن تجد غيرها في قاموس الصبر، غير أنها كانت تقف في تلك الزاوية مـن البيت تنتظر لحظة الانفجار الأخيرة.. تحـدت الدموع والأسى أول مرة، وخنقت الدموع في الأحـداق والأسى أول مرة، وذابت الأحلام في بحـر الحـزن العميق.. وتلاشى كل شـيء في رحم المـاء.. لكنها كانت أقوى وأنشط.

عائشـة بحدادها الطويل ووحدتهـا الرهيبة أقـوى إرداة.. بحزنها العميـق وكآبتهـا السوداء وجراحاتهـا التي لم تلتئم بعـد أبهى من هذه الأرض المستبشرة بالمولود الجديد الذي سيأتـي مع الربيع القريب.. بتحديهـا للألم سدت طريقاً في وجه الأحـزان والمخاوف؛ لأنها علمت أنـه التلاشي في رحـم الله.. التلاشي الذي تأتي بعـده الولادة الجميلة قريباً..

غصن التينة!!

استسلم أهل البيت لنوم عميق بعد أن هدأت الريح قليلاً، ولكنها ما هدأت إلا لتستجمع قواها وتنهض أشد وأقوى، وما هدأت إلا لتمهل هؤلاء المتعبين من التفكير، المتخمين بسهام الكلمات المحرقة، والخارجين لتوهم من حرب الكلمات التي أدمت الأفئدة، فراحوا يتكلمون دون تفكير، وراحوا يطلقون النار على غير ملهبها، ولكنهم الآن ناموا بعد أن هدأ صرير الرياح القوية، ولم يعد هناك غير جسد يتحرك فوق الأرض، وروح هائمة في السماء، تقلبت في فراشها يمينًا وشمالاً، ولكن الأرق أبى إلا أن يزورها مثلما تعود أن ينزل ضيفًا عليها.

رحبت كعادتها بهذا الضيف الذي وقف بين يديها؛ عله يقاسمها وحدتها وهمومها؛ عله يبكي معها بصريره القوي أو يبكي معها الأشجار فتنفض أوراقها لتسوقها رياح الخريف كما تسوق كل شيء.

أزاحت الغطاء، وراحت تتفرس في وجوههم، وهم يغطون في سبات عميق، لماذا لم ينزل الأرق بأحدهم؟ ألأنهم يحسنون الكلام جميعًا؟

أما أنا فمازلت صغيرة لا أفقه شيئًا منه، وإن أحسنت الكلام، فالقانون لا يسمح لي بالتكلم؛ لأنني مازلت صغيرة! هأنذا وحدي الآن سأتكلم ما شئت.. سأقول كل شيء للنجوم!!

آنستها الرياح بعزفها الصاخب بسقف البيت القصديري وبأغصان شجـرة التين التي أخـذت تبكي مع الطفلة أو تبكي لهـا، فالبكاء حرام عليها، ولم البكاء؟! لم يعد البكاء في نظر الطفلة دموعًا ساخنة تذرف وتبلـل الوجه وإنما ألـف ضحكة أو بسمة تتجبها الشفـاه، والقلب باكٍ، والنفس مكلومـة، وحتى هذه الطريقة التي اهتدت إليها، فإنها لا تدري كـم ستدوم؟! ستتسلى بها لتبلى، وتبحث مرة أخرى عن طريقة جديدة للبكاء تحت ضوء النجوم.

فـي الموسـم المقبل أحسـت بتيار متدفـق من الكلمـات تتصاعد وتتسابق للخروج، ولكن الحنجـرة كانت باردة! وها هي الآن.. الكلمات تتصـارع لتدوي في هدوء المنزل وصمته الرهيـب، أحست بحاجة إلى الـكلام.. إلى البـكاء.. فقامت مـن مكانها بكل هـدوء، وراحت تمشي بخطوات خفيفة خائفة؛ خشية أن توقظ أحدهم أو جميعهم، وما هي إلا لحظـات حتى أصبحت خارج الدار، الآن تستطيع أن تتكلم.. أن تبكي.. أن تقول كل ما أحبت أن تقوله، وتطلق العنان للكلمات المتصارعة؛ كي تخـرج، ستقذف الحنجرة بأكبر كلمة وأثقلها لتلوكها الشفتان، وينتشر صداهـا، ويختلـط بخريـر الريـاح الباكيـة، أمسكت بغصـن الشجرة الباكـي، وراحت تنتظر القذيفة الأولى.. غيـر أن الكلمات أبت الخروج إلـى الظلام والوحدة، وإلـى التبدد في الفضاء، أبـت إلا أن تسكن في حنجرة الطفلة وقلبها المضيء.

هـذا الغصن الشامخ كان بالأمس فقط يبـدو بعيدًا، وكم تمنت أن تكبـر لتمسك به مثلما يفعل إخوتهـا، وكانت رفعت إليه عينيها؛ لترجوه أن يدنو منهـا، وتمد ذراعيها، وتحلم بيوم تدرك فيه الغصن.. اشتدت ملاحقتهـا للغصـن، وكثر وقوفهـا تحت الشجـرة، وفـي كل مرة تجد الغصن قد اقترب.. بل ساقاهـا وذراعاها هما اللتان اقتربتا، الغصن يتطـاول والطفلـة تجد نفسها في كل مرة أقـرب وأقرب، وها هي اليوم تمسك به، وتتذكر أملها الصغير، وحلمها الباهت كيف غدا عذابًا؟!

- كـم لاحقتـك أيها الغصـن! كم تسلقـت لتلامس كفـاي أوراقك الخضـراء! وكم قفزت لأمسح عنك الغبـار! أو أقطف حبة تين! وهأنذا أقـف أمامك وأمد ذراعـي؛ لتعبث الأصابع بوريقاتـك، هل كبرت حقًّا وأصبحـت مثلهم؟ أم أن ساقي هما اللتـان ارتفعتا لتلحقا بك؟ أم أنك انحنيت لتقبل يدي اللتين لا تزال تغلفهما مسحة البراءة الطفولية؟..

- أبدًا، فإنـك لا تزال فارعًا في شموخك وتطاولك، أنا التي كبرت وعمـري صغيـر، أنا الطفلـة التي أصبحـت امرأة بسببك يـا غصن.. عذبتنـي يـوم كنت صغيرة أطـاردك، ولمـا كبرت وكبر ألمـي وعذابي معـك، كانت الفرحة كبيرة يوم رفعت إليك عينـي فرأيتك قريبًا، ويوم امتـدت يـدي لتلعب بأوراقـك، ولكنها ماتت في يومهـا؛ لأنني أصبحت في نظر القانون امـرأة لا يسمح لها عمرها الصغير بالكلام.. الأعمار عندما تقاس بالأغصان والأشجار.. سأروي أيها الغصن، هذه الشجرة لترتفع أنت وتسمو، وتغدو بعيدًا لتخفف الكلمات، وتكبر فرحتي، ويبقى القانون حائرًا..».

وهـي واقفة تناجي الغصـن والنجوم سابحات فـي السماء أحست بـدوار شديد يغـزو رأسها، ارتخـت العضلات، وسقطت اليـد المتعبة الممسكـة بالغصـن.. أمسكت الطفلـة الكبيرة بجـذع الشجرة، وظلت تتابعـه بيدها إلى أن استوت جالسة تحـت الشجرة وضوء القمر، مدت ساقيهـا فوق التراب وفوق أوراق الشجـر المتساقطة، اتكأت على جذع الشجـرة، وراحت تتأمل ساقيها اللتيـن كانتا بالأمس فقط صغيرتين.. يوم كانت تجري مع إخوتها وأترابها، أما اليوم فلم تعد تستطيع الجري أو اللعب، ليس أمامها سـوى الجلوس أمام الدار وتأمل الرفاق الصغار وهم يلعبون ويمرحون؛ لأنهم لم يبلغوا بعد غصن التين المحدد!!

التخلـي عن اللعب سهل جدًّا.. وهـي طفلة لم تكن نفسها تميل إليه كثيرًا، فكيف تعشقه اليوم؟! ربما دنو الغصن منها هو الذي جعلها تفكر فيه، وتشتاق إليه أكثر مما مضى، وفي كل مساء يجتمع فيه الأولاد للعب تجلس في ساحة الـدار تتأمل البنات وتضحك علـى غفلتهن وغفلتها، فقد يباغتهن مساء، ولن تخرجن للعب إذا أدركن غصن التين بأيديهن الصغيرة..

تخلـت الطفلـة عـن اللعـب، ولم تعـد تفكر فيـه، ولم تعـد تراقب الأتراب؛ لئلا ترى السرب قد أخذت عصافيره تدخل أقفاصًا من حديد كل يـوم..! ولكن الذي لم تستطع أن تقبله نفسهـا الطفلة هو الدراسة، فهل تقاس الأعمار بغصن التين.. وبالطول والقصر؟.

منذ أن سمعت أباها وإخوتها يتحدثون عن عمرها المقيس بالغصن، وهي تتألـم وتبكي، ولا أحد يراها، الأرق يعذبهـا كل يوم، عندما يخنق

القانون الأعمار، وعندما يقاس العمر بالطول، فإن الأرق حبيب الجفون يلاعبها، يبكيها، ويضحكها، يقاتل خوفها من الظلام ووحدتها القاتلة، ولا يغادرها إلا فجرًا فتهجع قليلاً لتبدأ الحياة من جديد حركتها.

كانت أختها الكبرى عندما لامست غصن التين.. وعندما ارتفعت ساقاها توقظها كلما زارها أرق الخريف لتقاسمها الوحدة والعذاب، فلم تكن تجد بدًّا من البكاء معها أو الضحك عليها.. ولكنها بكت ذات يوم؛ لأن عذاب أختها أصبح عذابها، وسمعتهم يتحدثون عنها:

- سلمى كبرت ولن تخرج بعد الآن.. كذلك آمال كبرت.. إنها لاتزال صغيرة!!

ووقع جدال حولها، عين تراها قد كبرت وأخرى تراها صغيرة! حينها سكن الخوف قلبها، وبعد أن كانت تضحك على سلمى أصبحت تشاركها ألمها، وتقاسمها الهم والوحدة، ولكن بنفس مطمئنة.. مازال الخوف لم يسكن قلبها بعد، فعين الأب تراها صغيرة، إذا بكت مع سلمى ورثت لحالها، وإذا أرقت لهموم سلمى التي بكت حينًا وعادت إلى الدراسة، ثم زارها الأرق في الخريف المقبل وعذبها الانتظار والبكاء، فكانت آمال تستيقظ معها، وتعودت أرق الخريف وانتظاراته الممزوجة خوفًا وأملاً، وعادت إلى الدراسة، فضحك فؤادها وفؤاد أختها، ولكن هذه المرة أصبحت كبيرة حقًّا في نظر القانون، عندها وبعد فقدان الأمل بكت وبكت معها آمال.! أما اليوم وقد تعودت على الأرق والخريف، فإنها لن تبكي أبدًا، لماذا الخوف، وهذه هي الأيام الأوائل من الخريف؟

ومضت السنون جارية، وألفت أختها الكبرى الدار، وأتقنت كل ما فيها من أعمال.. لم تعد سلمى طفلة، إنها امرأة بمعنى الكلمة!!

راحت الطفلة تعصر ذاكرتها المتعبة؛ لتجود عليها بذلك اليوم الذي لزمت فيه سلمى الدار.. بكت سلمى أيامًا وأشهرًا عندما أوقفت عن الدراسة، ولا ذنب لها سوى أن يدها أدركت غصن شجرة التين!.. عذبها الأرق أشهرًا، وكانت كلما اشتد بها الألم أيقظت أختها لتسليها، هذه الطروب الضحوك التي كانت تهزأ منها وتضحك عندما كانت العبرات تغلب سلمى، فتنزلق فارّة منها.. كانت هي تضحك من ضعفها وخوفها:

- لو كنت مكانك لواجهتهم جميعًا، لثرت في وجه أبي وإخوتي جميعًا، أنت لم ترتكبي ذنبًا، وما ذنبك إذا كبرت واكتنز الجسم؟!

ولما تعودت على دموع سلمى بكت معها، ثم بكت لما ربطوا مصيرها بمصير سلمى، ثم أصبح الأرق رفيقها.

ذكريات أليمة انبعثت إثرها، تنهدات عميقة من الطفلة المرأة في نظر القانون، وراحت تضحك على نفسها:

- ها قد حان الأوان وأعاد الزمن الكرّة معي. لماذا لا أواجه والدي؟ ولكن ماذا سأقول له؟ إنني لأخجل حتى من تحيته.. من شكره.. فكيف سأتكلم معه وأنا الطفلة التي لا يسمح لها القانون بالكلام؟ وهل تكلمت عندما أوقفوها عن الدراسة؟ هل تكلمت سلمى عندما زوجوها؟ أبدًا استسلمت سلمى ورضيت.. لست أدري، الصمت هنا في هذا البيت وفي معظم بيوت قريتنا هو الدواء! لكي تكون المرأة امرأة في نظر القانون يجب أن تسكت، يجب أن تطيع، يجب أن تقتل حتى الدموع والأسئلة عن سبب حزنها، وإذا عرف السبب أصبحت في نظر الجميع متمردة! حتى الدموع والأنين والتأوه تمرد، الهزال تمرد..

يـوم غاصت عينا سلمى، ويوم اصفر وجهها والجبين، سألها الوالد عـن سبب الهـزال، فلم تـرد عليه بشيء وظـل يمطرهـا بأسئلته وهي صامتة لا تجيب!!

وراحت الطفلة تسأل القمـر والنجوم عن سر سلمى، أسعيدة هي؟ أنسيـت سلمى الدراسة؟ وكانت تجيب عـن أسئلتها الحائرة بأن سلمى قـد تكون سعيدة؛ لأنها استطاعت أن تقتـل دموعها الغزيرة في أشهر، واستطاعـت أن تسكـت طيلـة ثلاث سنـوات غير أن وجههـا يوحي لها بالسعـادة والألم، سعادتها لما أضيفت إلـى قاموس النساء، وأما الألم فلا حدود له.

-ربـاه يا رحمن! مـا ذنبي عندمـا ترتفع ساقي؟ ما ذنبـي يا رباه! عندمـا تطـول يداي؟ ما ذنبـي عندما أدرك الغصن؟ مـا ذنبي عندما تكبـر الطفلة ويكتنز جسمهـا؟! كانت السماء صافيـة والنجوم تضيء الكـون، وكانت الطفلـة ترى القوة فيها، فـلا تبرح تنظـر إليها سائلة، متأملة، مقتدية.

قد تنسى سلمـى، وقد تسعد مثلما تسعد الأرض بجراحاتها؛ لأنها تعلـم أن الجراح تجعل منها أمًّـا لألف وليد، ومثلما تسعد الأشجار بريح الخريف التي تجعلها أجمل وأبهـى عندما يأتيها الربيع ضاحكاً.. مثلما يسعد هؤلاء تسعد سلمى بقلبها الكبير وحبها الذي يفيض على الجميع، عندما تصبح سلمى أمًّا تكون أسعد، وعندما..!! ولكن هل تسعد النجوم عندما تختفي في السماء، وترتسم على سطح بركة هادئة؟ أبدًا لن تسعد النجوم ولن تسعد آمال؛ لأنها لم تحب النجوم إلا لأن أرضها السماء..

تنهـدات عميقة وأفكار كبيـرة زاحمت رأس آمـال الطفلة المرأة، فنهضـت بتثاقـل كبير ومدت يدها إلـى الغصن، فخالته بعيـدًا بعيدًا، وراحـت تمـد يدها إلـى أن استوى فـي قبضتها الطفلـة، وراحت تعبث بأوراقـه الصفـراء الشاحبة التـي أتت الرياح عليها، فلـم تبق منها إلا القليل.. كانـت أصابعها تنتزع الأوراق، ونفسهـا ترسم مخططاً للحاق بالنجـوم، وتجاوز هـذا الغصن المتكبر فـي تعاليه، الرافـع رأسه إلى السماء؛ حتى لا يجد الناس غصنًا آخر لقياس الأعمار!

- سأدوخهـم في البحث عن غصن يقيسون به أعمارنا، فلن يجدوا حينهـا إلا الأعياد والمواسم.. فلانـة عمرها أحد عشر عيدًا، والأخرى اثنـا عشـر عيـدًا.. وأنا كـم عيدًا عمـري؟! عندمـا أسأل والـدي غدًا سأعلمكم كم عمري..

- سأكلمـه غدًا، إذا لم أعـد إلى المدرسة، فمن سيكون الأول؟! لا، لـن يكون.. لا، لن أقبـل هذا.. لن يكـون أحد قبلي.. أنـا الأولى، سواء ذهبت إلى المدرسة أم لا.. وسأظل إذا أردت..

تبدد الألم وأشرقت العينان، غزاهما بريق حاد كبريق هذه النجوم، بريـق يحمل التحـدي سلاحًا والأمـل الكبير الذي أنجبـه القلب برغم عمرها الـذي بلغ الغصن.. دخلـت البيت بخطواتهـا الهادئة الرزينة، استـوت على الفراش، تقلبـت يمينًا وشمالاً، لكن انتظـار الصباح زرع الأرق في جفونها، فسبحت فـي أحلامها العريضة وآمالها الطويلة بعد أن هدأت الريح، وراحت تنتظر الصبح؛ لتكلم والدها؛ كي تحطم قانون الأعمـار، وتعود إلى المدرسة قبل موت الخريف، وقبل موت الأمل الذي أفعم قلبها، فقتل كل ألم فيه وحيرة!!

رائحة النعناع

ضغطت أصابعه السمراء النحيفة المرتجفة على الزر، فخيم الظلام على الركن الصغير الذي ينزوي فيه كل ليل، حيث الكل نيام، ذلك الركن الكالح، الحزين المظلم حتى في النهار. تناول الغطاء الثقيل وراح يلف به الجسد البارد، ويخفي وجهه من لفحات البرد، أخذ يتخبط تحت الغطاء ويتقلب.. يبحث عن قبس من الحرارة في أعماق شرايينه الباردة المتصلبة، الغطاء يرتفع، ولفحات البرد تلتف حول الجسد المنهار، تلسعه فيختطف ويتقلب.. يتلوى.. ويحلم بالدفء الذي يملأ أنفه كل يوم، عندما يعود في وقت متأخر من الليل إلى البيت، عندما لا يجد أحدًا ينتظره، عندما يشتم رائحة في الدفء تتسرب من مضاجعهم، يملأ الحزن قلبه.. يذبل بريق عينيه البحر المتأجج.. ويغرق في تساؤلات عديدة.. أهكذا كان بيتنا بالأمس؟ أهكذا كان حال أسرتنا بالأمس؟

بالأمس فقط كنا إذا تأخر عضو من هذا الجسد الراكض نحو الانهيار والضياع، نظل في انتظاره، ولا نبيت ولو تأخر بنا الوقت، ولو

داعـب النعاس الجفون! هكـذا كانت أسرتي في الزمـن السحيق الذي ولى ولم يعد..

انطفـأت شعلة الحنان التـي كانت تعيش بالأعمـاق، ذبلت، ماتت، ذهبـت جذوة الألفة التي ألقتها يد الإله في القلوب.. وكانوا هم السبب فـي موتها.. بل كنا نحن سبـب موتها، فقد أدخلناهم إلى بيوتنا ضيوفًا نتسلى بهم فصاروا أربابها ونحن العبيد، لا نسير إلا على هديهم الذي أورثنا الرذيلة والتدني، ولا نمشي إلا بإشارات وهمسات منهم، فنسقط كما يريدون لنا..

الصـداع يخنـق مخـه.. يريـد أن ينفجـر.. ويفجـر ذلـك الرأس المشحون بأحـزان الدنيا وهمومها. أحس فجـأة بالاختناق.. بالبرد.. بالغثيـان.. أكاد أعتنـق الظـلام.. الرائحـة التي كانـت دواءه وشفاءه صـارت اليوم علته.. الرائحة تهاجـم الأنف الأشم.. تهزمه وتدخل إلى الرئتين المفعمتين بغازات العصر ودخانه الكثيف. تمازج الرائحة التي غدت سر عذابه، القصبة الهوائية، تتسلل إلى الشرايين.. تختلط بدمه البـارد، ينكمش في فراشه الحزين، يتلوى.. يحاول أن يعتصر الرائحة مـن دمائه، يطردها عـن كيانه وينفثها من حيث دخلـت.. ولكنها تعيد الكـرة، تعيد الهجـوم.. رائحة النعناع التي كانـت بالأمس شفاء الفؤاد ومناه صارت اليوم عذابًا..

- إنـي أختنـق.. أيها النعنـاع، ابتعد عنـي، أيها النعنـاع، تغرب.. واغربـي أيتها الزهرية.. اغربي عن وجهـي، اسقطي، تكسري، فنعناع القلـب طالت جذوره، وامتدت فروعه، وصار يرفض رائحتك المزيفة..

إنـي أتنفـس النعناع، إنـي أختنـق.. الأرق.. القلـق.. اهجرينـي أيتها الرائحة، التي طالمـا ناجيتها وبت الليل أملأ رئتي بأريجها. لا شك أن النعنـاع قد أطعمته الزهرية الساحرة بسحرها، وخنقت عطره الفواح، خنقتـه وأعطته أنفاسًا جديدة، لم تعد عربيًّا أيها النعناع، ما داموا قد استوردوا زهريتك من وراء البحار.

كان الجسد العربي الأصيل يلتف في غطاء غير عربي، ولباس غير عربـي.. بالأمس فقط كان يقضي الشتاء ملتفًا فـي برنوسه الأبيض أو الأدرع الـذي حاكتـه يـدا والدته التي هجـرت اللحمة والنـول والسداة واستبدلت بها خيوطـاً قادتها السفن القادمة من وراء البحار، بالأمس فقط كان يلتف في غطاء حاكته يداها الطاهرتان.. كان بالأمس القريب ومهما تأخر به قطار الليل يعود فيجدها تلهو بمغزل أو مشط، وبصوف شويهات، ولكننا اليوم أصبحنا نبيع الصوف لأيدٍ تتقن الخداع؛ لتحيك لنـا ما تحب أن نلبسه كمـا تريد هي، ولتفصل لنا مـا نلبس على قدها هي. إذا أعطيناها صوفًـا دفعنا الثمن، وإذا استرددناها دفعنا الثمن، وإذا أخذنـا منها لباسًا وغطاء دفعنـا الثمن، برغم الجليد الذي تأتينا محملة به.. فإلى متى نظل وحدنا ندفع الثمن؟!

الـدفء يتسرب من البيت الآخر حيث القلـوب العامرة الناسية ما يحاك حولها صباح مساء، والباحثة عن نوم وطعام وماء.. أنفاس النوم تتسرب مـن هناك، وأنفاس الدفء تحـاول أن تخامر أنفه المتعب من الروائح الغريبة، ورائحة النعناع تحاول خنق آخر الأنفاس، تضرب عليه حصارًا يتشابك وخيوط الغطاء العربي الأملس الخشن.

- متى أنام يا ليل؟ متى تأذن للأرق بالرحيل وتوديع جفوني المتعبة؟! هل أنام؟ متى أنام أيها النعناع الغريب، المتغرب عن بلاد العرب؟ متى تهجــر رئتي وأنفــي؟ متى تحررني من قيد رائحتــك الممزوجة بنسائم الزهرية المستوردة من وراء البحار؟!..

لفحات البرد تلسع جسمه الثائر، الغاضب على الأرق، وعلى خيوط الغطــاء الجــرداء من لمسات الحنــان واللين، العارية مــن كل طبيعي، ورائحة النعنــاع تزكم أنفه الذي كم أرغمه على الجلوس ساعات طوالاً بالقــرب مــن جنة النعنــاع، هي جنة غرستهــا يداه، وروتهــا كما روتها روحــه، فنما بالأرض نعناع، وبالقلب نعنــاع نضير أخضر. أشفقوا عليه مــن تلك المناجاة الطويلة للنعناع، فجاؤوا به إلى حجرته، لكنهم قتلوه بذلــك الإناء المسدود الذي وضعوه فيه، خنقوه، فتغيرت رائحته، وغدا وكأنه رائحة أشجار الدفلى المطوقة للوديان.

- أريــد أن أنام، متــى أنام أيها الزمن المفعــم بالدخلاء، وبالزاد القادم من وراء البحار؟! متى أحرر ذلك النعناع من رائحته الجديدة؟! متى أحرر الغطاء من خيوطه الغريبة؟!..

تلــوى، التف حول نفسه.. انكمش.. دسّ رأســه تحت الغطاء البارد مثــل خيوطــه وسداته. ولكن البرد بــات يغزو جسمــه المنهك، ورائحة النعناع باتت تملأ رئتيه وتمتزج بدمائه.

تمــرد العربــي الثائر علــى الغطــاء، وراح يقلب في خزانــة ثيابه.. يبعثرها يمينًا وشمالاً، تناول برنوسه في وقار ولطف والتف فيه، وجرى نحو النافذة المغلقة. اقتلع جذور النعناع وألقى بالزهرية الجميلة، كما

يقـول كل من دخل غرفته!!! وجـرى لاهثًا بتلك العيـدان إلى الحديقة؛ ليعيدهـا إلى الأرض الأم؛ حتى تطهرها مما علق بها. وبات ليله سامرًا لها، يستنشق أريجها الجديد وهو يردد:

- الآن فقـط حررتـك أيهـا النعنـاع! الآن فقط صـرت عربيًّا أيها النعناع! الآن فقط أعدت إليك رائحتك القديمة وطهرك القديم!!..

منشورات رابطة الأدب

الإسلامي العالمية

١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.

٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.

٣- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.

٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبدالباسط بدر.

٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.

٦- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.

٧- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي.

٨- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.

٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.

١٠- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبدالدايم.

١١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو.

١٢- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.

١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.

١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قميحة.

١٥- ديوان «في ظلال الرضا»، أحمد محمود مبارك.

١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.

١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليمة الحمد.

١٩- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

٢٠- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.

٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية»، محمد رشدي عبيد.

٢٢- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».

٢٣- أدب المرأة .. دراسات نقدية من بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلاميات.

٢٤- الآمال صارت آلاماً، رواية من الأدب التركي، تأليف د. نور الله كنج، ترجمة د. عوني لطفي أوغلو.

٢٥- نحو كوكب الحرية - رواية من الأدب الفارسي، تأليف محمود حكيمي، ترجمة عثمان أيزدبناه.

٢٦- مملكة النحل - رواية من الأدب التركي - تأليف علي نار، ترجمة كمال أحمد خوجه.

٢٧- أقباس - ديوان شعر - طاهر العتباني.

٢٨- الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة - د. كمال سعد خليفة.

٢٩ - عقد الروح - ديوان - شعر نبيلة الخطيب.

٣٠- المفسدون في الأرض - مجموعة قصصية - فاطمة محمد شنون.

٣١- فوهة الجرح - مجموعة قصصية - سكينة قدور.

صدر في سلسلة أدب الأطفال

١- غرد يا شبل الإسلام - شعر - محمود مفلح.

٢- قصص من التاريخ الإسلامي - أبو الحسن الندوي.

٣- تغريد البلابل - شعر - يحيى الحاج يحيى.

٤- مذكرات فيل مغرور - د. حسين علي محمد.

٥- أشجار الشارع أخواتي - شعر - أحمد فضل شبلول.

٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب - فوزي خضر.

٧- باقة ياسمين - قصص للأديب التركي علي نار - ترجمة شمس الدين درمش.

٨- أغنية للغيمة البعيدة - شعر - أحمد زرزور.

٩- مغامرات عصفور - قصص - عبدالجواد الحمزاوي.

١٠- شيماء - قصص - حسن القشتول.

١١- مدينة الرحمة - مسرحية - محمود عبدالله محمد.

١٢- بيض من ذهب - مسرحية - لطفي عبدالمعطي مطاوع.

١٣- سجين الهاء والواو - مسرحية - محمد عبدالحافظ ناصف.

● تطلب من رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤- ص.ب ٥٥٤٤٦

هاتف: ٤٦٣٤٣٨٨-٤٦٢٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦

web page adress: www.Adabislami.org

E-mail: info@adabislami.org

المؤلفة في سطور

● سكينة قدور.

- من مواليد شلغوم العيد بولاية مسيلة بالجزائر.
- حصلت على الليسانس، والماجستير في اللغة العربية وآدابها من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في قسنطينة.
- عضو هيئة التدريس بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.
- كتبت بحث التخرج بعنوان: المرأة في المعلقات العشر.
- رسالة الماجستير بعنوان: رسالة المشرق لمحمد إقبال.
- كاتبة قصة قصيرة، وقد فازت مجموعتها القصصية (فوهة الجرح) بالجائزة الثانية في مسابقة الأديبات بالرابطة.

● عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.